

أدب الرحلة عند العرب

د. حسنى محمود حسين



الهيئة المصرية العامة للكتاب

أدب الرحلة عند العرب

د. حسني محمود حسين



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٧٦

تمهيد

منذ دب الانسان على هذه الأرض وهو يحاول اكتشـــاف ما يحيط به من أسرارها بقصـــد التعرف والسيطرة على ما يكتنفه من الحياة ، لا فرق فى ذلك من حيث المبدأ بين ارتياده بقعة تجاوره من نفس الغابة التى يأوى اليها أو غزوه غابة أخرى ، وبين ارتيـــاده أطراف الفضاء أو غزوه أجوازه البعيدة . ويوم يحط قدمه على سطح القمر (١) أو أى كوكب آخر سيبدأ يعيد سيرة أبيه الأقدم عندما حط هو الآخر بقدميه على سطح الأرض ، وانتصب على ساقيه يذرع ، متوجسا ، ما حوله منها ، ولكن مع فارق الاداة العلمية ، واختلاف

(١) كتبت هذه الدراسة قبل أن يطأ الانسان أرض القمر .

الوسيلة والامكانات التى توفرت له على مدى هذا التاريخ الانسانى ، الذى خط ذلك الأب الأقدم أول حروفه بتلك الخطوات الأولى فى رحلة الحياة الآدمية . وتوسع الانسان برحلاته على مدى الدهور ، ولم يعد يقصرها على سطح الكرة الأرضية ، فراح يتشوف رحلات أعجزته قدرته عن تحقيقها بالفعل ، فلجأ الى خياله وفكره يجوس بهما خلال عوالم ودنى أخرى ، على غرار ما فعل آحاد نابهون من بنيه يعدهم الزمان على أصابع اليد الواحدة . وجاء انسان القرن العشرين ليبدأ بالفعل تحقيق ما عجز عنه أسلافه بغير الخيال . وهكذا فان حياة الانسان رحلة دائمة لا تتوقف الا على تخوم الأبدية . ويوم يعجز عن افتضاض أسرار الحياة والأكوان حوله بالرحلة أو بالخيال فلسوف تكون قدماه تقتربان به من تلك التخوم .. ولربما تكون رحلة من نوع جديد !!

والرحلة فى هذا المفهوم أمر طبيعى يتعلق بحياة الأفراد والأمم ، ولا داعى للحديث هنا عن دور الأمم السابقة من الفراعنة والفينيقيين واليونان والرومان وغيرهم

فى مضمار الرحلات ، وانما نحن معنيون بالتوجه الى الحديث باختصار عن دور العرب فى هذا المضمار لنتعرف على تطوره واتجاهاته لديهم •

أولا ــ الرحلات : أهميتها وعلاقتها بالعلوم وبالجغرافيا خاصـــة :

اذا قلنا ان فنا من فنون القول العربى يعرض فى مضمونه الى ناحية أو الى أخرى من نواحى الحياة ، فاننا نقول ان نمط الرحلات يتعرض الى جميع نواحى الحياة أو يكاد ، اذ تتوفر فيه مادة وفيرة مما يهم المؤرخ والجغرافى وعلماء الاجتماع والاقتصاد ومؤرخى الآداب والأديان والأساطير • فالرحلات منابع ثرة لمختلف العلوم، وهى بمجموعها ســجل حقيقى لمختلف مظـاهر الحياة ومفاهيم أهلها على مر العصور • فالرحالة وهو يطوى الأرض أثناء رحلته يغطى فى نفس الوقت ملاحظة مظاهر مختلفة فى الحياة ، يشاهدها أو يسمعها أحيانا وينقلها فى رحلته • ولا شك أن الرحالين يختلفون فيما بينهم فى دقة ملاحظتهم وفى درجة اهتمـامهم وفى نوع هـذا

الاهتمام، كما يختلفون أيضا فى درجة صدقهم وأمانتهم وفى تنوع فهمهم للأمور تحت الظروف المتغايرة التى يخضعون لها ، ومع ذلك ، فاننا ننظر من هذه الناحية الى الرحلات كمبدأ وككل ، مهما كان بينها من اختلاف وتنوع فى الاتجاه والتقدير • ومن هنا كان للرحلات قيمتان عظيمتان : قيمة علمية ، وأخرى أدبية •

أما القيمة العلمية ، فقد تأتت لها مما تحتويه معظم هذه الرحلات من كثير من المعارف الجغرافية والتاريخية والاجتماعية والاقتصادية وغيرها ، مما يدونه الرحالة تدوين المعاين فى غالب الأحيان من جراء اتصاله المباشر بالطبيعة وبالناس وبالحياة خلال رحلته • واذا حددنا هذه العلوم بأنها تسجيل للظاهرات المختلفة المتعلقة بميادينها ودراسة هذه الظاهرات وتفسيرها ، فان الرحالة يمثل دور الناقل لهذه الظاهرات ليضعها بين أيدى الجغرافيين أو المؤرخين أو علماء الاجتماع مثلا ، كل بحسب اختصاصه • وهو يقرب من أحدهم بمقدار ما يلجأ الى دراسة ظاهرات اختصاصه وتفسيرها • فان كان علم الجغرافيا مثلا يدرس ظاهرات سطح الأرض الطبيعية

والبشرية ، ويقـوم منهجه فى ذلك على تسـجيل هذه الظاهرات وتفسيرها وتوزيعها على سطح الأرض ، فان الرحالة وهو يدون مشاهداته الجغرافية على سطح الأرض انما يعمل فى خدمة هذا العلم من هذه الناحية على الأقل اذا لم يتجاوزها الى الخطوة التالية لها فى منهجه ، فهو عندما يصف الممالك والبلدان والاصـقاع والاقاليم ، والمدن والمسالك ، ويتحدث عن المناخ والطبيعة ، وعن ظاهرات توزيع السكان وغير ذلك مما يعتبر من صميم الدراسات الجغرافية ، انما يعتبر من هذه الناحية مرجعا أساسيا ومعينا كبيرا للعالم الجغرافى الذي يدرس تلك الموضـوعات • ومثل ذلك يمكن أن يقال فى الرحالة بالنسبة لباقى العلوم التى يتعرض لمجال دراساتها • ومن المعروف أن بعض المؤرخين والجغرافيين العرب يعتبرون رحالين ، اذ كانوا يجمعون مـواد موضـوعاتهم عن طريق الرحلة قبل أى طريق آخر • وهذه العلوم المختلفة مرت بعدة مراحل قبل أن تصل الى ما هى عليه اليوم من دقة وتحديد وضبط ، وقبل أن تتخذ صفة العلم القائم بذاته بفضل تقدم العقل البشرى وأدواته العلمية • فقد

كان علم الجغرافيا مثلا يعتمد قديما الأسلوب الوصفى الأدبى ، كما كان يستقى مواده من مصادر الأدب والتاريخ وعلم الاجتماع والاقتصاد والدين ، فاذا أصحابه يمزجون بين هذه العلوم جميعا ، حتى ويمزجون بينها وبين الخرافات والأساطير ، فأتت كتبهم محتوية على كل طريف ممتع . وحتى اليوم فان العالم الجغرافى أو الباحث الاجتماعى ينزل الى ميدان عمله ليرصد بعض الظاهرات التى تهمه من وجهة النظر الخاصة بعلمه وبحثه .

ومن هذه الناحية ، فان من المتفق عليه أن الرحالين العرب قدموا ، على مر العصور ، خدمات جلى فى دراسة أحوال البلاد العربية والاسلامية من مختلف نواحيها . ولم تقتصر افادتهم فى ميدانهم هذا على البلاد الاسلامية وحدها ، وانما تعدوها فى رحلاتهم وأخبارهم الى بلاد أجنبية أخرى فى آسيا وأفريقيا وفى أروبا فيما بعد ، ولما يكن وصلها الاسلام ، فأمدونا عنها بمعلومات من الدرجة الأولى خصوصا اذا قورنت هذه المعلومات بما كان يعرفه العالم عنها فى العصور الوسطى حتى الكشوف الجغرافية المتأخرة لدى الأوروبيين . ولقد كان

للرحالة العرب فى العصور الوسطى فضل كبير قدموه للانســـانية كجغرافيين ، ويتجلى فى حفظهم ودراستهم للمادة الجغرافية الهائلة التى أورثها العلماء اليونان من أمثال استرابون وبلينيوس وبطلميوس القلوذى وغيرهم ، للعصور الوسطى ، واستفادتهم من هذه المادة استفادة كبيرة • ولا يقلل كثيرا من قيمة ما كتبه الرحالون العرب فى المادة الجغرافية ، ما خضعوا فيه للنظريات الموروثة عن الأوائل (١) ، أو ما نقلوه من خرافات الشـــعوب وأســـاطيرها دون أن يحـــكموا فيه العقل وملكة النقد والتحليل التى يبدو أنها كانت ضعيفة لديهم فى غالب الأحيان مما جعل مثل هذه النظريات تأخذ طريقها الى أفكارهم مع أنها لم ترق الى مستوى تجربتهم العملية التى أســـهموا عن طريقها بتقديم مواد جغرافية جديدة وذات قيمة عظيمة •

---

(١) كالظن ، على غرار اليونان ، بأن المعمور من الأرض هو ربعها فقط وذلك فى النصف الشمالى منها ، وكالاعتقاد باستحالة الحياة فى البلاد الشديدة الحرارة أو القارسة البرودة ، وبوجود سلسلة جبلية تنتظم الأرض من الغـــرب الى الشرق وبأن بعض الأنهـــار (كالنيل) تسقط من منابعها فى الجنة •

وأما القيمة الأدبية فى الرحلات فتتجلى فى ما تعرض فيه موادها من أساليب ترتفع بها الى عالم الأدب ، وترقى بها الى مستوى الخيال الفنى . وبرغم ما يتسم به أدب الرحلات من تنوع فى الأسلوب من السرد القصصى الى الحوار الى الوصف وغيره فان أبرز ما يميزه أسلوب الكتابة القصصى المعتمد على السرد المشوق ، بما يقدمه من متعة ذهنية كبرى ، مما حدا بالدكتور شوقى ضيف الى اعتبار أدب الرحلة عند العرب « خير رد على التهمة التى طالما اتهم بها الأدب العربى ، تهمة قصوره فى فن القصة » . وقد أفاد أدب الرحلة بغنى موضوعاته ، فى صرف أصحابه فى غالب الأحيـان ، عن اللهو والعبث اللفظى والتكلف فى تزويق العبارة ، ايثارا للتعبير السهل المؤدى للغرض لنضجه بغنى تجربة صاحبه ، مما يفتقده كثير من الأدباء والمحترفين فى بعض عصورنا الأدبية . ولا يعنى هذا أن الأسلوب فى هذا الأدب قد تخلص من كل الصفات والعيوب الأسلوبية الأخرى ، فهو يعتمد السـجع أحيانا ، وهو ينحو منحى الجفاف والصرامة العلمية أحيانا أخرى خاصة فى تناوله للموضوعات العلمية

ومع هذا يظل مشوبا فى أغلب الأحيان بشىء من الطراوة والاخضرار يبقيانه غضا وعلى شىء من اللين ، « فلقد آثار هذا الأدب اهتماما بالغا بسبب تنوعه وغنى مادته ، فهو تارة علمى وتارة شعبى، وهو طورا واقعى وأسطورى على السواء ، تكمن فيه المتعة كما تكمن فيه الفائدة . لذا فهو يقدم لنا مادة دسمة متعددة الجوانب لا يوجد مثيل لها فى أدب أى شعب معاصر للعرب » . وبهذه المميزات والخصائص المتعلقة بأسلوب أدب الرحلة وبموضوعه الشمولى الغنى بما فيه من علم وأدب وخرافة وأسطورة يمكننا اعتباره نمطا خاصا من أنماط القول الأدبى ، قد لا يرقى الى مستوى الفن القائم بذاته كفن القصة أو الشعر أو المسرحية أو المقالة الأدبية مثلا ، ففيه تجتمع أساليب هذه الفنون وموضوعاتها كلها من غير أن تضبطه معاييرها أو أن يخضع لمقاييسها .

ثانيا ـ دواعى الرحلات والتأليف فيها عند العرب :

سنجعل الفتوح الاسلامية نقطة البداية فى هذا الحديث ، مع أن عرب الجاهلية كان لهم رحلاتهم التجارية

الى بلاد العراق والشام واليمن وغيرها ، ثم ان بعض الشعراء كانت لهم رحلاتهم فى داخل الجزيرة والى خارجها . ومع ان هذه الرحلات لم يدون منها شيء أكثر مما ورد فى مضامين الشعر وكتب اللغة فيما بعد ، الا أنه لا بد أنها أفادت العرب فوائد عملية جلى فى فتوحاتهم التى انطلقوا فيها الى ما جاورهم من بلاد لهم بها سابق معرفة عن طريق هذه الرحلات وغيرها من مثل رحلات عبور البدو .. وجاءت عملية الفتوح رحلة أو رحلات فى ذاتها قدمت للعرب تجارب ومعارف جديدة كلما توسعوا فى هذه الفتوح ، وخلقت ظروفا أخرى جديدة اقتضت الرحلة والبحث : فقد وحد العرب البلدان التى فتحوها دينيا وثقافيا الى حد بعيد ، وتطلبت مسألة ادارتها التعرف التام عليها لضبط شئونها المالية والادارية بتنظيم الادارة والبريد والخراج خصوصا وان ذلك يرتبط بالطريقة التى تم بها الفتح ليتقرر على أساسها مقدار الجزية والخراج ، ومن ثم تحمل المؤرخون من أصحاب السير والمغازى مهمة وصف هذه المدن وسكانها وأحوالهم . وبتحدد الأمور وتبلورها مع الأيام ، استقل

البعض بوصـــف المدن والاقاليم والتعريف بها وبطرقها وبخراجها • وكان متولو البريد وأشباههم أصلح الناس للقيام بهذه المهمة • فلم يكن غريبا اذن أن يؤلف « ابن خرداذبة « كتابه المسالك والممالك » تقريرا عن جباية الدولة العباســية ، وهو يومهـــا متولى البريد والخبر بنواحى الجبـــل بفارس ، وحرره فى ســـامرا بعيد عام (٢٣٠) هـ • ثم كان كتاب (الخراج) لقدامة بن جعفر ، بين فيه الطرق والمسافات فضلا عن قيمة جباية المملكة ، وضمنه أخبارا كثيرة تتعلق بأحوال الدولة والبلاد المتاخمة لها • وفى هذه الفترة كان المسلمون قد علقوا بعلوم اليونان وكتبهم فتأثرت أبحاث العرب الجغرافية فى عهدها الأول بما وصل اليه اليونان من قبل ، فكان أثر بطلميوس على الجغرافيين منهم كبيرا ، فجاءت كتبهم تحمل آثاره بشكل واضح » • فابن خرداذبة ، نقل بعض كتابه عنه ثم أضاف اليه الخراج والطرق على ما ذكره هو فى مقدمة كتابه ، والخوارزمى فى كتابه (صـــورة الأرض) خلف لنا خلاصة لجغرافية بطلميوس ، اذ « حذا حذوه ، واقتفى أثره ، غير أنه جاء بكتاب جديد ممدوح مستحسن •• »

وبالاضافة الى ذلك فقد اقترنت بالحاجة الادارية حاجة دينية اقتضت وصف طرق الحج لتعيين محطات القوافل ومنازل الحجاج بين البلاد والأماكن المقدسة فى الجزيرة. ثم ان كثيرا من الحجاج والتجار قد وصفوا فى كتب خاصة الطرق والبلاد التى رأوها . ولا شك أن طلب العلم فى مراكز البلاد كان يقتضى رحلة طلابه من أطراف ومدن عديدة فى أنحاء البلاد الى مراكز العلم فيها ، يساعدهم وحدة البلاد السياسية والدينية والثقافية . فكان ذلك أيضا أحد أسباب الرحلة الداخلية ووصف المشاهدات وتأليف الكتب فيها ، كما كان عند البعض روح المجازفة والمغامرة على غرار رحلة الفتية المغررين(١) فى بحر الظلمات ، حتى انه ليظن آن من العرب من وصل الى أمريكا قبل كولمبوس .

(١) هى رحلة قام بها ثمانية رجال من أبناء اشبونه (لشبونه) فى القرن الرابع للهجرة (العاشر الميلادى) غرروا بأنفسهم ، فطافوا فى بحر الظلمات (المحيط الأطلسى) لمدة بضعة أشهر تقاذفتهم خلالها الأقدار والأمواج من جزيرة الى أخرى . وبعد أهوال ومخاطرات عادوا الى بلدهم ؛ فاطلق عليهم الناس اسم الفتية المغررين ، يقصدون انه غرريهم فى مجازفات ومغامرات غير مجدية ، والمظنون انهم وصلوا الى بعض الجزائر فى المحيط الأطلسى ، ولعلهم وصلوا الى جزائر ازورا وكنارى .

ومن الطبيعى أن العرب لم يبدأوا فى تمثل الخبرات الخاصة بهم الا بعد رسوخ قدمهم وازدياد معارفهم العلمية • حتى انه « يمكن القول بأن مصنفات المسلمين لم تنشأ فرعا متميزا بنفسه عن فروع التأليف الأخرى الا بعد عام ٨٠٠ للميلاد » • فعظمة الدولة فى ذلك الحين هيأت لهم آفاق الاتصال القوى مع غيرهم عن طريق السفارات والبعثات مما فتح لهم أبواب معرفة عملية جديدة عرفوا من خلالها أخبار مجاوريهم معرفة دقيقة • ومن أقدم من يذكرونهم في هذا الباب سلام الترجمان الذى يقال أن الخليفة الواثق (٨٤٢ ــ ٨٤٧) أرسله فى بعثة الى بلاد الصين ليشاهد السد الذى بناه الاسكندر فى ديار يأجوج ومأجوج ، وعادت الرحلة لتقص على الناس أخبار الصين وعجائبها • وكذلك فان هناك بعثات دينية كان لبعض أفرادها دور فى ميدان الرحلات والكتابة فيها ، كالبعثة التى أرسلها الخليفة المقتدر عام ٩٢١ م الى بلاد البلغار حين كان ملكها قد طلب بعثة دينية بسبب دخول كثير من البلغار فى الاسلام • ورأس هذه البعثة (ابن فضلان) ووضع كتابا

وصف فيه تلك البلاد وذكر عادات أهلها وأحوالهم .
ومع الزمن وبقوة الدولة الاسلامية بدأت العلوم والمعارف في النضج عند العرب ، ومن بين هذه المعارف الجغرافيا الوصفية التي قامت على رحلة بعض المفكرين والأدباء لسبب أو لآخر ، فاطلعوا خلال رحلاتهم على أحوال البلاد وشاهدوا حياة أهلها وعاداتهم ، وكتبوا في مظاهر الحياة الطبيعية وغير الطبيعية . ومما تجدر الاشارة اليه أن غالبية هؤلاء الرحالة المؤلفين كانوا كتابا قبل كل شيء ، فجاءت كتاباتهم يغلب عليها الطابع القصصي يستندون به الى الواقع أحيانا ويجنحون الى الخيال أحيانا أخرى ويحفلون فيه بالقصص للمتعة التي تسمو به الى مرتبة الأدب الفني الصرف في أغلب الأحيان .

ونحن اذا أردنا أن نعرض ملامح من هذه المؤلفات على مر العصور ، فاننا نجد أن القرن العاشر الميلادي يمثل من هذه الناحية فترة النضج التام ، فقد زخر بمصنفات مهمة بلغت أوج التطور الخلاق كحركة مستقلة قائمة بذاتها ، اذ « تم في هذا القرن تشكيل ما يسمى بالمدرسة الكلاسيكية للجغرافيا العربية .. وقد بلغ عدد

الرحالة فى هذا القرن حدا كبيرا ، نذكر منهم ابن حوقل والمقدسى والاصطخرى وأبا زيد البلخى والمسعودى الذى يعد أعظم الجغرافيين اصالة فى هذا القرن • وقد يفسر هذا النضج ، على الرغم من الضعف السياسى للدولة الاسلامية بنضج الحضارة وتأصلها ، وبعدم فعالية هذا الضعف القائم على الانقسام الداخلى ، لأنه لم يؤثر على وحدة البلاد الدينية والثقافية بخاصة • ويطلع علينا فى القرن الحادى عشر اسم أبى الريحان محمد البيرونى، الذى كان قد التحق بالسلطان محمود الغزنوى فى غزنة سنة ١٠١٧ م حيث قام بعدة رحلات علمية فى بلاد الهند التى قضى فيها نحو أربعين سنة ، ووضع كتابه « تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة فى العقل أو مرذولة » ، ومع ذلك، فهو كتاب يستحيل «اعتباره كتابا جغرافيا، بالمعنى الضيق للفظ •• فالمكانة الأولى عنده تحتلها الحضارة الروحية للهند ، وقليل من فصوله الثمانين يمس موضوعات جغرافية بحتة ، وهو ينتمى الى طراز آخر من المؤلفات » اذ هو أقرب الى مصنفات البحوث العقلية منه الى المصنفات الجغرافية •

وبعد القرن الحادى عشر ، وان ظلت بعض المصادر الأدبية وخاصة الكتب التاريخية تزودنا بالمعارف الجغرافية المعتمدة على المعاينة ، فقد أخذت الكتب الجغرافية الصرف يتميز طابعها أكثر فأكثر بالتنسيق الأدبى للمواد الواردة فى المصنفات المتقدمة . وبدأ بعد ذلك نمط آخر ينال القبول لدى الجمهور ، ذلك هو وصف الرحلات . «ولم تدون الرحلات على هيئة كتب (المسالك) المعروفة لنا ، بل دونت على هيئة مذكرات يومية مع تفاوت فى الدقة فيما يتعلق بتدوينها من يوم لآخر .. وأول من وضع الأساس لهذا الفن حسب علمنا ، وكان ذلك قبل نصف قرن من ابن جبير ، هو الفقيه أبو بكر محمد ابن العربى (٤٦٨ ـ ٥٤٣ هـ : ١٠٧٦ ـ ١١٤٨م) . وأصله من اشبيلية ، ولكن لم يلبث ان غادرها الى المشرق بعد زوال دولة آل عباد .. وكان هدفه الدراسة (فطاف فى الشام والعراق والحجاز ومصر وعاد الى الأندلس) .. أما وصف رحلته فمفقود ، وكان يحمل عنوان ـ الرحلة ـ أو ترتيب الرحلة ـ . وجاء ابن جبير بعد ابن العربى ليؤصل هذا الاتجاه فى كتابة الرحلة بصياغة أدبية عالية،

حتى ليمكن القول بأن كتب الرحلات تبدأ من هذا العهد برحلة ابن جبير ، وتلاه فيما بعد بحوالى قرنين ابن بطوطة ليقدم فى ظروف خاصة نمطا جديدا من الرحلات يختلف عن سابقه ، ابن جبير ، فى أنه نحا منحى الغرائب والخرافات فى رحلته . وستكون هاتان الرحلتان من ضمن الرحلات التى سنعرض لها بالدراسة والنقد .

وكما سنرى ، فقد كان من أهم بواعث هذه الرحلات الحج ، وطلب العلم . وابتداء من القرن الثالث عشر يبدأ طابع الرحلة فى (طلب العلم) يطغى على نمط الرحلة ، كما نشاهد فى رحلة أبى محمد العبدرى ، وابن عمر عبد الله بن رشيد النشريسى ، وفى هذا النمط من الرحلة يحتل الصدارة لدى صاحبها التعريف بأساتذته وبالعلماء الذين التقى بهم ووصف المكتبات ودور العلم التى زارها ، ونحا بعضهم بهذا النمط من الرحلة منحى آخر ، استند فيه الرحالة على أساس ترجمة حياته الشخصية (أوتو ــ بيوجرافيا) والتعريف بنفسه ، وقد يتحول فيه أحيانا الى معجم للسير يترجم فيه ، لشيوخه وللعلماء الذين التقى بهم والى معرض لمختارات أدبية

تعطى فكرة جيدة عن الذوق الأدبى لعصره ، وأكثر من يمثل هذا الاتجاه عبد الرحمن بن خلدون فى كتابه « التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا » ، وسيكون هو الآخر موضع دراسة ونقد فى هذه الدراسة كمثال على هذا الاتجاه .

وهكذا فقد شهدت القرون التالية لابن جبير كثيرين من الرحالة الذين أغنوا الأدب العربى وبعض العلوم العربية الأخرى بما كتبوه فى رحلاتهم من أمثال عبد اللطيف البغدادى وياقوت الحموى وابن سعيد والعبدرى فى القرن الثالث عشر ، وابن بطوطة وابن خلدون ومحمد بن رشيد الفهرى الأندلسى ومحمد التجانى فى القرن الرابع عشر ، ثم رحلة الظاهرى والملك قايتباى فى القرن الخامس عشر ، وحتى هذا القرن فقد ظل العرب متفوقين فى ميدان الرحلات الى أن قامت حركات الاستكشاف الأوروبية ، وكان العرب قد منوا بفترة من التأخر امتدت ثلاثة قرون أو يزيد ، عم خلالها الضعف والجهل فى جميع ميادين الحياة ، وانصرف الكثيرون عن الحياة الى الزهد ولم يصلنا خلال هذه

القرون شيء ذو بال من الرحلات ، فقد اقتصرت الى حد كبير على زيارة استانبول عاصمة الخلافة العثمانية أو على الحج وزيارة الأماكن المقدسة الاسلامية والمسيحية • ومن أبرز هذه الرحلات رحلة عبد الله المراكشي العياشي ، ورحلة عبد الغني النابلسي ورحلة على الجبيلي ، وظل هذا الجمود العام يطبق على أدب الرحلة في جملة ما يطبق عليه من حياة الأمة العربية حتى كانت النهضة الحديثة ففتحت على أساسها أبواب أوربا على البلاد العربية ، وراح الكثيرون من أبنائها يرحلون الى تلك البلاد طلبا للعلم أو العمل أو السياحة أو غيرها ، فبدأ أدب الرحلة ينتعش ، وبدأت زهوره في التفتح من جديد • وكان فيض عميم من هذا الأدب ، في القرنين الأخيرين • ومن أبرز أصحابه في القرن الماضي الشيخ رفاعة رافع الطهطاوي ، وشهاب الدين الألوسي ، وعبد الله فكري ، وأحمد فارس الشدياق ، وسليمان البستاني ، وسوف نعرض الى رحلة كل من الطهطاوي والشدياق في هذه الدراسة • أما في القرن العشرين فقد زاد الاتصال وتعمقت آثاره ، ونضجت العلوم

والتفكير أكثر مما كان عليه ، وزاد الوعى واليقظة ، وكثر الرحالون من أمثـال محمد الخضر حسـين ، والورتتانى ، والبتانونى ، ومحمد حسـين هيكل وطه حسين ، وحسين فوزى، وأمين الريحانى وكثيرون غيرهم٠ ولسوف نعرض الى الرحلات التى تخيرناها نماذج على هذا الأدب عند العرب لنقف على دوافع أصحابها ، ونوع اهتمامهم بالأمور ، ومدى عمق نظرهم اليها ، وسنعرض فى هذا المجال أيضا الى أسلوب الرحالة فى رحلته والى تقويم عام لكل رحلة ، لنقف على قيمة هـذا الأدب ، واتجاهاته وتطوراته (١) ٠

---

(١) فى أدب الرحلة عند العرب فى القرن العشرين : لنا كتاب « أمين الريحانى وأدبه فى الرحلة » نرجو أن يصدر قريبا ٠

١ ـ رحلة ابن جبير

هى رحلة قام بهـا أبو الحسـن محمد بن أحمد ابن جبير الكتانى الأندلسى ليحج بيت الله الحرام ، فخرج من غرناطة فى الثامن من شوال سنة خمسمائة وثمان وسبعين للهجرة ـ ثلاث وثمانين ومائة بعد الألف ميلادية ـ وقد استغرقت رحلته مذ خرج من غرناطة الى حين عودته اليها سنتين وثلاثة أشهر ونصفا ، مر فيها على مصر والديار الحجازية حيث بقى فيها بضـعة أشهر ، وعرج ، بعد أداء الفريضة ، فى طريق عودته على بلاد

العراق والشام ، ومنها سافر بحرا عن طريق صقلية فوصل بلاده فى الخامس عشر من محرم سنة خمسمائة وواحد وثمانين للهجرة . ولا يهمنا أن نتابع ابن جبير فى طريق رحلته ذهابا وايابا ، فذلك مدون فى أخبار الرحلة وفيما كتب حولها ، وهو ليس من مهمة هذه الدراسة على أية حال . وانما الذى يهمنا فى الحقيقة أن نسـجل بعض الملاحظات والانطباعات عن هذه الرحلة فى سياق مكتبة أدب الرحلة عند العرب . فزمن الرحلة كما يبدو من تاريخها وكما أشار صاحبها فى مصر والشام كان فى أيام احتلال الصليبيين لبلاد الشام، أيام كان السلطان صلاح الدين فى مصر يعد ويعمل على صدهم وطردهم من هذه البلاد . وصاحب الرحلة ، كان رجلا متفقها فى أواخر العقد الرابع من عمره ، فهو مولود فى سنة ٥٤٠ هـ ، وكان قريبا من بلاط الحكم فى غرناطة اذ ألحقه حاكمها أبو عثمان سعيد ابن عبد المؤمن بكتاب ديوانه بعد أن لمع اسمه هناك ، وهو يدون أخبار رحلته هذه على صورة مذكرات يومية ـ يسـتعمل فيها دائما التـاريخين القمرى (مع السنة الهجرية) والشمسى (دون ذكر السنة) ـ أراد ككاتب

أن يحفظ فيها بعض صور هذه الرحلة التى قامت عليها شهرته الأدبية بين الأجيال التالية • وفى الغالب، فان ابن جبير لم يكن ينوى نشر هذه الرحلة ولم يكن يتوقع لها هذا الذيوع ، والا كان وضعها فى كتاب متسلسل مطرد • ولربما كان تسجيله هذه المذكرات لمجرد اطلاع سيده بعد العودة على مشاهداته فى بلاد المسلمين والديار المقدسة وانطباعاته عن أهلها خلال فترة غيابه عنه • ويؤيد هذا ما يقوله ابن الخطيب عن أبى الحسن الشارى من أن بعض تلاميذ ابن جبير هو الذى نسق هذه المذكرات وفقا لمراحل الرحلة • فابن جبير ، كما يبدو ، لم يكن يخطر فى باله أن يكتب أدب رحلة بقدر ما كان ينوى أن يضع شبه تقرير يرفعه الى سيده أبى عثمان • ولكن طول الزمن الذى استغرقته الرحلة جعل صاحبها يستمرىء التدوين ويتوسع فيه ، ثم كان لغلبة الصبغة الأدبية الواضحة على ابن جبير ، والتنسيق الذى أصاب هذه المذكرات أو هذا التقرير ان ارتفع به وعن جدارة ، الى مصاف أدب الرحلة القيم ، ويزيد فى كفة ترجيح هذا الرأى أن صاحب الرحلة قام بعدها برحلتين أخريين حج

فيهما وزار الديار المقدسة ولم يكتب عن هاتين الرحلتين شيئا . وكان بامكانه ، لو توفر فيه روح الرحالة الأصيل أن يقارن بين أحوال البلاد وشعور المسلمين خلال السنوات التى فصلت بين زياراته الثلاث من ٥٧٨ وحتى ٦١٤ هـ ، لا سيما وقد كان صلاح الدين قد انتصر على الصليبيين واسترجع بيت المقدس ، وزارها ابن جبير وعلم الاسلام يرفرف فوقها ، ولكنه لم يفعل . ثم ان الشهرة التى نالها ابن جبير من وراء هذه الرحلة ، دون أن يعرف له أثر أدبى سواها ، قد تقوى هذا الزعم وتفسح له مكانا ما قيل فى هذه الرحلة . وعلى أية حال ، فليس المقصود انتقاص شىء من قيمة الرحلة سواء صح هذا الزعم أم لم يصح، فلسوف تبقى فى ذروتها السامقة نموذجا لا ينازع على أفضل ما كتب فى أدب الرحلة الخالص فى العصور الوسطى . ولعل فيما زعمته سالفا ، مع ما يتسم به ابن جبير من سمات شخصية ، أثرا فى تخليص رحلته من كثير مما صبغ رحلات سابقيه من تداخل واسع بين شتى الموضوعات وبذلك اتسمت بطابع أدبى أنقى ، فكانت أكثر آثار العصور الوسطى قيمة فى هذا المجال ، مجال

أدب الرحلة ، لما امتازت به من اتقان وجودة ، ونفحات أدبية .

ومن الملاحظ ان ابن جبير وان كان من رجال الديوان فى غرناطة ، الا انه لم يشر أدنى اشارة الى أنه عومل أثناء رحلته ، سواء فى معاملات السفر أم فى النزول والقيام، معاملة خاصة أو رسمية ، فهو مع صحبه، كأى حاج آخر يفتش كما يفتشون فى الاسكندرية . بل انه يقدم عليه فيها (أحمد بن حسان) صاحبه فى الرحلة ليسأل عن أحوال المغرب ، فهل كان (أحمد) هذا مقدما فى الحاج المغربى أكثر من ابن جبير ؟؟ ، يبدو أن ابن جبير كان وقتها شخصا عاديا لم تقم له آية شهرة فى العالم الاسلامى ، ولم لا ، فرحلته لم تكن قد كتبت بعد ، بل لم تكد تبدأ !! وهذا على عكس ما سنرى مع ابن بطوطة الشاب ، الذى يسجل لنا آيات تكريمه لدى السلاطين والأمراء ، ويذكر كتب التوصية به من أحدهم الى الآخر ، وهكذا كان ابن جبير فى هذه الرحلة شخصا عاديا ، وانما يحكمه ، كما يقرأ من سطور رحلته ، كونه

عالما فقيها يولى المساجد وقبور الصحابة والأولياء جل عنايته واهتمامه ، ففى كل بلد يحل فيه يشغل نفسه كثيرا فى احصاء مساجده ، ووصف المشهور منها ، وفى زيارة قبور الصحابة والصـــالحين واطالة الحديث عنها . ففى القاهرة يقف طويلا عند القرافة فيها ويعدد ما فيها من قبور ومشاهد • ويزور قبر الحسين ، ويقف أمامه مبهورا لكثرة الطائفين حوله وتقديسهم له ، فيعجزه التحرج الدينى من التعرض لوصفه • وفى رأيى أن هذا التحرج الذى يشف من بين سطور الرحلة عن وقار العالم وشىء من تزمت الفقيه حد من فيض الأحاسيس لدى الأديب، ان لم يكن شلها الى حد كبير، فجعله يتحدث من خلال عقل الرجل المتدين وحسب ، فحرمنا ما كان ممكنا أن يفيض فيه الرحالة من وصف للطريق الطويل فى البر وفى البحر: فى مناظره ومشاهده وأناسيه المختلفى السحن ، المتباينى الأهواء •

وفى الحالات النادرة التى تعرض فيها ابن جبير لما يمكن أن يكون مجالا لوصف المشاعر واستثارتها ،

بقيت مشاعره حبيسة رزانة الفقيه ، وطيبته المتدينة ، فهو يكتفى فى وصف البحر وقد سكن بأنه « يخيل لناظره انه صحن زجاج أزرق » ، ويتحدث عن مهارة النواتية فى التصرف بالمراكب بين الشعاب ، فيكتفى بالقول «ويدخلونها على مضايق ويصرفونها خلالها تصريف الفارس للجواد الرطب العنان ، السلس القياد ، ويأتون فى ذلك بعجب يضيق الوصف عنه » . وليس هذا وحسب ، وانما تبدو هذه الاغلال التى يغل بها مشاعره عن الانفلات فى وصفه الطوافين حول قبر الحسين فى القاهرة اذ يقول « وشاهدنا من استلام الناس للقبر المبارك ، واحداقهم . وانكبابهم عليه ،وتمسحهم بالكسوة التى عليه ، وطوافهم حوله مزدحمين داعين متوسلين الى الله سبحانه وتعالى ، ببركة التربة المقدسة ومتضرعين ما يذيب الأكباد ، ويصدع الجماد ، والأمر فيه أعظم . ومرآى الحال أهول نفعنا الله ببركة ذلك المشهد الكريم . وانما وقع الألماع بنبذة من وصفه مستدلا على ما وراء ذلك ، اذ لا ينبغى لعاقل أن يتصدى لوصفه ، لأنه يقف موقف التقصير والعجز . وبالجملة فما أظن فى الوجود كله مصنعا أحفل

منه ، ولا مرأى من البناء أعجب ولا أبدع ، قدس الله العضو الكريم الذى فيه بمنه وكرمه » •

وهذه الأحكام التعميمية تكاد تقترب فى عددها لدى رحالتنا من عدد الموضوعات التى تعرض لها ، وهى ان دلت على شىء فانما تدل على طيبة متناهية فيه ، وعلى سلامة طوية دفعتا به الى هذا الافراط ، والتعميم فى الأحكام ، فكل ما يعجب به غاية لا يستطيع وصفها الواصفون، فهاهو ذا، وقبل أن يصل مكة ويرى مقدساتها، يحكم، وهو لم يزل فى بداية رحلته، بأن لا مصنع فى الوجود أحفل من قبر الحسين فى القاهرة مما يعجز عنه الوصف ، ويحكم بعدها بأن عدد الحجاج لا يحصيه الا الله ولم يوجد مثله فى أى عام آخر • ويطيل المكث فى مكة ، اذ يظل فيها ثمانية أشهر وثلثا من ١٣ ربيع الآخرة سنة ٨٧٩ الى الخميس ٢٢ ذى الحجة من نفس السنة ، ويستغرق وصف الأماكن المقدسة ومشاعر الحج فيها جزءا كبيرا من رحلته ، فيصف الكعبة والمسجد الحرام وصفا دقيقا مفصلا ولكنه وصف أصم يصلح لأن يقيم به مهندس معمارى نموذجا أو خريطة لموصوفاته ،

اذ هو للأسف ، خلو من شعور الواصف وأحاسيسه أو من أى تصوير لأحاسيس الناس فى هذا الموقف العظيم . وكذلك هو وصفه لكل المساجد والأماكن الدينية التى تعرض للكلام عليها فى المدينة أو فى دمشق أو حلب أو فى غيرها ، يقول فى وصف جامع حلب « وهذا الجامع من أحسن الجوامع وأجملها ، قد أطاف بصحنه الواسع بلاط متسع ، مفتح كله أبوابا قصرية الحسن ، الى الصحن ، عددها ينيف على الخمسين بابا ، فيستوقف الأبصار حسن منظرها . وفى صحنه بئران معينان . والبلاط القبلى لا مقصورة فيه ، فجاء ظاهر الاتساع رائع الانشراح وقد استفرغت الصنعة القرنصية جهدها فى منبره ، فما أرى فى بلد من البلاد منبرا على شكله ، وغرابة صنعته . واتصلت الصنعة الخشبية منه الى المحراب ، فتجللت صفحاته كلها حسنا ، على تلك الصنعة الغريبة . وارتفع كالتاج العظيم على المحراب وعلا حتى اتصل بسمك السقف ، وقد قوس أعلاه وشرف بالشرف الخشبية القرنصية ، وهو مرصع كله بالعاج والأبنوس ... فتجتلى العيون منه أبدع منظر يكون

فى الدنيا • وحسن هذا الجـامع المكرم أكثر من أن يوصف » • والمرة الفريدة التى تكاد مشاعره فيها أن نفلت من أغلالها يصف فيها جماعة السرو ، وهم قبائل من اليمن يعيشون فى جيال السراة ، لفتوا انتباهه فى صخبهم وكثرة ازدحامهم وهم يدخلون البيت العتيق ، وفى حـركاتهم وتصرفاتهم أثنـاء الصـلاة ، يقـول « ••• فازدحم السرو للدخول على العادة ، فجاءوا بأمر لم يعهد فيما سلف ، يصعدون أفواجا حتى يغص الباب الكريم بهم ، فلا يستطيعون تقدما ولا تأخرا ، الى أن يلجوا على أعظم مشقة ، ثم يسرعون الخروج ، فيضيق الباب الكريم بهم ، فتنحدر الفوج منهم على المصعد ، وفوج أخرى صاعدة فيلتقيان ، وقد ارتبط بعضهم الى بعض ، فربما حمل المنحدرون فى صدور الصاعدين ، وربما وقف الصاعدون للمنحدرين وتضاغطوا ، الى أن يميلوا ، فيقع البعض على البعض ، فيعاين النظارة منهم مرأى هائلا : فمنهم سليم ، وغير سليم ، وأكثرهم انما ينحدرون وثبا على الرؤوس والأعناق » • أما كيف يكون شعور النظارة وحكمهم على هذا المرأى الهائل ، فابن

جبير يسكت عنه ولا يفصح . وعن صلاة السرو أيضا يقول لنا « وأما صلاتهم فلم يذكر فى مضحكات الاعراب أظرف منهـا ، وذلك انهم يسـتقبلون البيت الكريم ، فيسجدون دون ركوع ، وينقرون بالسجود نقرا ، ومنهم من يسجد السجدة الواحدة ، ومنهم من يسجد اثنتين والثلاث والأربع ، ثم يرفعون رؤوسهم من الأرض قليلا، وأيديهم مبسوطة عليها ، ويلتفتون يمينا وشمالا التفات المروع ، ثم يسلمون أو يقومون دون تسليم ولا جلوس للتشهد ، وربما تكلموا أثناء ذلك ، وربما رفع أحدهم رأسه من سجوده الى صاحبه وصاح به ، ووصاه بما شاء ثم عاد الى سجوده ، الى غير ذلك من أحوالهم الغريبة » . والغالب أن الوصف لديه يخلو من الحركة والحياة ، فلا يكاد يشى بشىء من نبض الشعور ، ونفث الحياة ، فما هو الا آلة تصوير ، تنطبع الأشياء على قلمه كما تنطبع صورها على عدستها . والحق فانه ماهر فى هذا ومجيد ولكنه مع ذلك يفقد كثيرا من عناصر الجمال فى الوصف الحى . ومن أحسن ما كتبه ابن جبير فى الوصف وصفه المـدن والآثار والمدارس والمستشفيات

ومن أبرز عناصر الصنعة الأدبية فى هذا الوصف افتتاحه الكلام على المدن المهمة خاصة بفقرة مجودة مجملة .. تتزين بالسجع والجناس ، اذ تلقى منه احتفالا كبيرا ، فيدبج فيها فقرة أو بضع فقرات فى عبارة أدبية أنيقة ولكنها على أية حال ، تظل داخل اطاره المخصوص فى الوصف . يقول مثلا فى وصف مدينة نصيبين « شهيرة العتاقة والقدم ، ظاهرها شباب ، وباطنها هرم ، جميلة المنظر ، متوسطة بين الكبر والصغر ، يمتد أمامها وخلفها بسيط أخضر مد البصر ، قد أجرى الله فيه مذانب من الماء تسقيه وتطرد فى نواحيه، وتحف بها عن يمين وشمال بساتين ملتفة الأشجار ، يانعة الثمار ، ينساب بين يديها نهر وقد انعطف عليها انعطاف السوار ، والحدائق تنتظم بحافتيه ، وتفىء ظلالها الوارفة عليه ، فرحم الله أبا نواس الحسن بن هانىء حيث يقول :

طابت نصيبين لى يوما فطبت لها

ياليت حظى من الدنيا نصيبين

فخارجها رياضى الشمائل ، اندلسى الخمائل ، يرف

غضارة ونضارة، ويتألق عليه رونق الحضارة ، وداخلها شعث البادية باد عليه ، فلا مطمح للبصر اليه لا تجـد العين فيه فسحة مجال ، ولا مسحة جمال » • وهـكذا تراه فى مثل هذا الوصف ، كأنه طالب ناضـج يكتب موضوعات فى الانشاء ، وهو فى ذلك انما يمثل الطابع العام للكتابة فى عصره • ومع هذا فان الوصف لـديه يكون جزءا مهما من خصائص كتابته فى هذه الرحلة ، ينجح فيه على هذا المستوى الى حد بعيد • وفى رأيى أن النجاح الأهم الذى يسجله ابن جبير فى رحلته انما هو فى مجال الحياة الاجتماعية فهو ينظـر دائما الى أحوال الناس ومستشفياتهم ومدارسهم • وفى هـذا المجال تتجلى قدرته على الملاحظة وملكته فى النقـد والحكم ، ولا غرو فهـو على الأغلب ذو خبرات فى الحياة ناضجة ، بحكم عمله وسنه ، فلا يتحرج من اصدار الأحكام أو شبهها فى بعض الأحوال • ففى كلامه على أهل (عيذاب) وتحكمهم فى الحجاج وشظف الحيـاة التى يحيونها يقول « •• ولأهل عيذاب فى الحجـاج

أحكام الطواغيت . وذلك انهم يشحنون بهم الجلاب (١) حتى يجلس بعضهم على بعض وتعود بهم كأنها أقفاص الدجاج المملوءة ، يحمل أهلها على ذلك الحرص والرغبة فى الكراء حتى يستوفى صاحب الجلبة منهم ثمنها فى طريق واحدة ، ولا يبالى بما يصنع البحر بها بعد ذلك، ويقولون : « علينا بالألواح ، وعلى الحجاج بالأرواح » وهذا مثل متعارف بينهم . فاحق بلاد الله بحسبة يكون السيف درتها ، هذه البلدة ، والأولى بمن يمكنه ذلك الا يراها ، وان يكون طريقه على الشام الى العراق ، ويصل مع أمير الحاج البغدادى .. وان اطال طريقه بهذا التحليق فيهون عليه لما يلقى بعيذاب ونحوها .. فالحلول بها من أعظم المكاره التى حف بها السبيل الى البيت العتيق ، والحياة فيها على قدر كبير من الشظف والمشقة ، ويصفها بقوله « .. حسبك من بلد كل شىء فيه مجلوب حتى الماء ، والعطش أشهى الى النفس منه، فأقمنا بين هواء يذيب الأجسام ، وماء يشغل المعدة عن اشتهاء الطعام ، فما ظلم من على غنى عن هذه البلدة بقوله :

---

(١) الجلاب : المراكب .

(ماء زعاق وجو كله لهب) . وبالاضـافة الى هـذه الحياة فيها ، فأهلها الفوا بها عيش البهائم ، وهم أقرب الى الوحش منهم الى الأنس ، وهم « أضل من الانعام سبيلا ، وأقل عقولا ، لا دين لهم سوى كلمة التوحيد التى ينطقون بها اظهارا للاســلام ، ووراء ذلك من مذاهبهم الفاسدة وسيرهم ما لايرضى ولا يحل، ورجالهم ونساؤهم يتصرفون عراة ، الا خرقا يسترون بها عوراتهم وأكثرهم لا يسترون . وبالجملة فهم أمة لا خلاق لهم ولا جناح على لاعنهم » . وكما كان فى هذا الموقف مدفوعا بعقله وعلمه ، فلعن أهل عيذاب ، وجعلهم أضـل سبيلا من الأنعام ،ودعا الى اعلان مقاطعتهم بتغيير طريق الحاج عنهم ما أمكن ، فاننا نراه يقف بعاطفته موقفـا آخر مختلفا من أهل جده فيحنو ويشفق عليهم ، خاصة وان أكثرهم علويون ، « وهم من شظف العيش بحـال يتصدع لهالجماد اشفاقا ، يستخدمون أنفسهم فى كل مهنة من المهن : من اكراء جمال ان كانت لهم ، أو مبيع لبن أو ماء ، الى غير ذلك من تمر يلتقطونه ، أو حطب يحتطبونه. وربما تناول ذلك نساؤهم الشريفات بأنفسهن

فسبحان المقدر لما يشاء . ولا شك أنهم أهل بيت ارتضى
لهم الآخرة ، ولم يرتض لهم الدنيا . جعلنا الله ممن
يدين بحب أهل البيت ، (الذين) اذهب عنهم الرجس
وطهرهم تطهيرا » . وقد لا يكون هذا الموقف غريبا
لا سيما من مغربى يزور المشرق حاجا . ولكن الغريب
هو ما يصف به أهل بغداد من رياء ونفاق ، وطمع
وضلال ، فهل كان حكمه فيهم صادقا يا ترى ، أو انه
صادر عن حالات فردية أخطأ فى تعميمه عنها ، خصوصا
وهو لم يقم فيها الا فترة وجيزة لم تتجاوز اثنى عشر
يوما من يوم الأربعاء الثالث من صفر سنة ٥٨٠ هـ الى
يوم الاثنين الخامس عشر لنفس الشهر ، يقول فيهم بعد
أن يصفها كما رآها فى زمانه « وأما أهلها فلا تكاد تلقى
منهم الا من يتصنع بالتواضع رياء ، ويذهب بنفسه عجبا
وكبرياء ، يزدرون الغرباء ، ويظهرون لمن دونهم الأنفة
والاباء ، ويستصغرون عمن سواهم الأحاديث والأنباء ،
قد تصور كل منهم فى معتقده وخلده ، ان الوجود كله
يصغر بالاضافة لبلده ، فهم لا يستكرمون فى معمور
البسيطة مثوى غير مثواهم ، كأنهم لا يعتقدون ان لله

بلادا أو عبادا سواهم ، يسحبون أذيالهم أشرا وبطرا ، ولا يغيرون فى ذات الله منكرا ، يظنون أن أسنى الفخار فى سحب الأزار ، ولا يعلمون ان فضله بمقتضى الحديث المأثور فى النار ، يتبايعون بينهم بالذهب قرضا ، وما منهم من يحسن لله قرضا ، فلا نفقة فيها الا من دينار تقرضه ، وعلى يدى مخسر للميزان تعرضه ، ولا تكاد تظفر من خواص أهلها بالورع العفيف ، ولا تقع من أهل موازينها ومكاييلها الا على من ثبت له الويل فى سـورة التطفيف ، لا يبالون فى ذلك بعيب كأنهم من بقايا مدين قوم النبى شعيب . فالغريب فيهم معدوم الارفاق ، متضاعف الانفاق لا يجد من أهلها الا من يعامله بنفاق ، أو يهش اليه هشاشة انتفاع واسترفاق ، كأنهم من التزام هذه القبيعة على شرط اصطلاح بينهم واتفاق . فسوء معاشرة ابنائها ، يغلب على طبع هوائها ومائها ، ويعلل حسن المسموع من أحاديثها وأبنائها . أستغفر الله الا فقهاءهم المحدثين ، ووعاظهم المذكرين » . وقد ساء ابن جبير بعض ما شاهده من شئون الحكام والمسئولين فى البلاد الاسلامية ، فأعلن

تذمره من بعض تصرفاتهم كتفتيش رجـــال الجمارك للحجاج ومحاسبة (مردة) أعوان الزكاة لهم عـلى ما معهم من مال أو متاع دون نظر الى أحقية النصـاب، ومنهم من تجب الزكاة لهم لا عليهم ، وقد نظر الى المسألة من وجهة نظر تشف عن شعور انسانى بالاضافة الى النظر الدينى حيث يقول « .. وقد نهى الله عن التجسس ، فكيف عن الكشف لما يرجى ستر الصـون دونه ، من حال لا يريد صاحبها أن يطلع عليها ، أمـا استحقارا أو استنفاسا ، دون بخل بواجب يلزمها » .

ومما زاد فى سخطه ما شهده من ظلم الحكام المسـلمين لرعاياهم وللحجاج المسلمين وفى الحجاز بخاصة . وصور بعض جوانب حياة المسـلمين تحت حـكم الافرنج من الصليبيين ، وضاعف من سخطه على الحكام المسلمين ما رآه من حسن الحال بين الصليبيين والمسلمين من أهالى البلاد تحت أيديهم ، فقال فى ذلك « وقد أشربت الفتنة قلوب أكثرهم لما يبصرون عليه اخوانهم من أهل رساتيق المسلمين وعمالهم ، لأنهم على ضد أحوالهم من الترفيه والرفق . وهذه من الفجائع الطارئة على المسلمين : ان

يشتكى الصنف الاسلامى جور صنفه المالك له ، ويحسد سيرة ضده وعدوه المالك له من الافرنج ، ويأنس بعدله فالى الله المشتكى من هذه الحال » • وللرحلة قيمة فريدة من هذه الناحية فيما يتعلق بتصويرها حياةالمسلمين فى صقلية ، حيث عرج عليها فى طريق عودته ، وبقى هناك فترة يرقب عن كثب مظاهر الحضارة المادية والروحية للمسلمين فيها • ولقد برز ابن جبير الفقيه فى هذه الرحلة فى حكمه على أحوال الحجاز أيام حكم أمير مكة الظالم (مكثر بن عيسى) حيث يقول « فاحق بلاد الله بأن يطهرها السيف ويغسل ارجاسها وادناسها ، بالدماء المسفوكة فى سبيل الله ، هذه البلاد الحجازية ، لما هم عليه من حل عرا الاسلام ، واستحلال أموال الحاج ودمائهم » حتى ليبلغ به الأمر حد القول « فمن يعتقد من فقهاء أهل الأندلس اسقاط هذه الفريضة عنهم ، فاعتقاده صحيح لهذا السبب ، وبما يصنع بالحاج مما لا يرتضيه الله عز وجل • فراكب هذا السبيل راكب خطر ، ومعتسف غرر (١) ، والله قد أوجد الرخصة

---

(١) غرر بمعنى هلاك •

فيه على غير هذه الحال ، فكيف وبيت الله الآن بأيدى أقوام قد اتخذوه معيشة حرام ، وجعلوه سببا الى استلاب الأموال واستحقاقها من غير حل ، ومصادرة الحجاج عليها ، وضرب الذلة والمسكنة الدنية عليهم ، تلافاها الله عن قريب بتطهير يرفع هذه البدع المجحفة عن المسلمين، بسيوف الموحدين أنصار الدين » .

ومع ما قد يكون فى أحكامه هذه من غلو وقسوة الا أنه كان متدينا مستنيرا الى حد بعيد ، فلم يكن متعصبا للدين تعصبا أعمى ، وان ظهرت بساطته فى كثرة لجوئه الى الله فى حالاته من الرضى والغضب ، والاعجاب والاستنكار والاطمئنان والفراغ ودليلنا على ذلك بعض ما يذكره من معتقدات شعبية يأبى هو أن يصدقها أو يأخذ بها ، فيفسرها ويبين مواضع الخلل فيها ، حتى ليبلغ به الأمر أن يقيس مع آخرين ارتفاع ماء زمزم ليدحض ما يشيع بين الناس على سوالف الأزمنة من زيادة ماء زمزم سبعة أذرع لبركته . وكذلك لومه على من شهدوا زورا برؤية الهلال طمعا فى أن يكون العيد والوقوف فى عرفة يوم جمعة « كأن الحج لا يرتبط الا بهذا اليوم

بعينه » ، ومثل هذا أمور كثيرة يعارض فيها المعتقد الشعبى السائد • ولكنه ، مع ذلك ، لا يسلم من بعض الهفوات التى لم يخطر بباله تفسيرها كان يقول فى الحجر الأسود « وللحجر عند تقبيله لدونة ورطوبة ، ينعم بها الفم ، حتى يود اللاثم أن لا يقلع فمه عنه ، وذلك خاصة من خواص العناية الالهية » ، متناسيا قول عمر فيه (والله لولا أنى رأيت رسول الله يقبله لما قبلته) ، ومتجاهلا أو جاهلا بالفعل الحال النفسية التى يقبل بها الحاج ذلك الحجر • وكذلك فان ابن جبير لم يسلم من تأثير الخرافات الشعبية من مثل تصديقه بقاء أثر دم هابيل فى جبل قاسيون بدمشق » وقد أبقى الله منه فى الجبل آثارا حمرا فى الحجارة ، تحك ، فتستحيل ، وهى كالطريق فى الجبل ، وتنقطع عند المغارة (مغارة الدم) ، وليس يوجد فى النصف الأعلى من المغارة آثار تشبهها » • ومثل هذا ما قد يمثل أمانيه الحقيقية فى انتصار الدعوة المؤمنية الموحدية ، هذه الأمانى التى أعمته عن الخرافة التى تقول « ان بين جامع ابن طولون والقاهرة برجين مقتربين عتيقى البناء ، على أحدهما تمثال ناظر الى جهة المغرب ، وكان

على الآخر تمثال ناظر الى المشرق . فكانوا يرون أن أحدهما اذا سقط ، أنذر بغلبة أهل الجهة التى كان ناظرا اليها على ديار مصر وسواها . وكان من الاتفاق العجيب أن وقع التمثال الناظر الى المشرق ، فتلا وقوعه استيلاء الغز (جنس من الترك ، ويريد صلاح الدين وجيشه) على الدولة العبيدية (الفاطمية) ، وتملكهم ديار مصر وسائر البلاد وهم الآن متوقعون سقوط التمثال الغربى، وحدثان ما يؤملونه من ملكة أهله لهم ان شاء الله . ولم يبق الا الكائنة السعيدة من تملك الموحدين لهذه البلاد .. ونمى الينا أن بعض فقهاء هـذه البلاد المذكورة وزعمائها قد حبر خطبا أعدها للقيام بها بين يدى سيدنا أمير المؤمنين ، أعلى الله أمره ، وهو يرتقب ذلك اليوم ارتقاب يوم السعادة ، وينتظره انتظار الفرج بالصبر الذى هو عبادة . والله عز وجل يبسطها من كلمة ، ويعليها من دعوة انه على ما يشاء قدير » . واذا عرفنا أن ابن جبير قد أشاد كثيرا بحكم صلاح الدين الأيوبى ودعا له ، وعذره عن ظلم عماله بعدم معرفته بذلك وبانشغاله فى حرب الصليبين ، ومجده كثيرا لعنايته بالحجاج بعامة

وبالمغاربة بخاصة ، وهم وجدوا عطفا كبيرا منه طوال رحلته ، فاننا نعجب لهذا الموقف المتناقض الذى وقع فيه • فهل يكون أضاف الخبر أو خطر بباله أن يضيفه بعد عودته الى سيده فى غرناطة أو أن الخبر زيد من بعض تلاميذه ؛ ولكن قد لا يكون بعيدا أن تعظيمه لصلاح الدين لم ينف حبه لسيادة أسياده الموحدين وطمعه فى حكمهم للعالم الاسلامى •

بقى أن أشير أخيرا الى أسلوب ابن جبير فى رحلته • ويرى البعض أن « وصفه المفصل للابنية وان كان مملا للقارىء العادى فان أسلوبه يمتاز بالكثير من الحيوية وسهولة التعبير •• أما عرضه العام فيستهدف الصنعة والأناقة . وهو كثيرا ما يلجأ الى السجع الذى يعالجه بالكثير من المهارة دون أن يبالغ فيه أو يضطر القارىء الى تكلف الجهد فى تفهمه • كما يشحن كتابته بالاقتباسات الأدبية والاشارات اللطيفة مما يتطلب درجة معينة من المعرفة والاطلاع حتى يضحى مفهوما للقارىء » •

ويأخذ عليه الدكتور حسين نصار ، محقق الرحلة

عدة مآخذ منها : عبارته العامية التى لا ترضى عنها اللغة الفصيحة، ويرد ذلك الى كتابتها على صورة مذكرات ثم تنسيق هذه المذكرات فيما بعد على يده أو يد أحد تلاميذه • ومنها كذلك اختلال الضمائر فهى لا تسير وفقا للقواعد العربية الفصيحة ، وانما على القواعد العامية وخاصة فى المثنى الذى يعامل كالمؤنث فى أغلب المواضع ، وكذلك عدم ترابط العبارات فى كثير من الأحيان ، حتى اضطر هو ، مثله مثل محققها السابق ، الى زيادة كثير من أدوات العطف لترتبط الجمل وتتضح معانيها •

ومن الملاحظ أيضا أن ابن جبير يضمن كلامه كثيرا من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ، وينثر فيه بعض أبيات من الشعر فى مناسبات ملائمة • وقارىء الرحلة يقع فيها أحيانا على كثير من الاستعارات والتعبيرات الأدبية التى يصطنعها اصطناعا ، مثل قوله فى وصف أحد خطباء الحرم الشريف فى مكة « •• وفى أثناء ذلك (حديثه) ترشقه سهام من المسائل فيتلقاها بمجن من الجواب السريع البليغ ، فتحار له الألباب » ، وفى عودة

احدى خواتين الحاج العراقى الى مكة وفى أسباب ذلك « ••• واجيلت فى سبب انصراف هذه الملكة المترفة قداح الظنون ، وسلت الخواطر على استخراج سرها المكنون » • ويقول فى سفرهم من عكا وقد سكن البحر « فعاد كأنه صرح ممرد من قوارير ، ولم يبق للجهات الأربع نفس يتنسم ، فبقينا لاعبين على صفحة ماء ، تخاله العين سبيكة لجين ، كأنا نجول بين سماءين » •

ومهما يكن فان هذه الرحلة تحوى بعض المعلومات التى لا يستغنى عنها مؤرخ ، أو جغرافى أو أديب يريد أن يدرس هذه الفترة المهمة من حياة الشرق الاسلامى ، وقد زفع بها صاحبها هذا الضرب من الصياغة الأدبية الى درجة عالية مما حدا بالكثيرين الى عدها ذروة من ذرى ما بلغه نمط الرحلة فى الأدب العربى • وقد أفاد منه فائدة كبرى الجغرافيون والمؤرخون والرحالة المتأخرون عليه ممن أعجبوا بعبارته •

٢ ـ رحلة ابن بطوطة

قام ابن بطوطة بثلاث رحلات ، زار فى الأولى بلاد المشرق الاسلامى بما فيها الهند والصين ، وزار فى الثانية بلاد الأندلس ، وفى الثالثة بلاد السودان الغربى • وكان قد غادر طنجة مسقط رأسه فى يوم الخميس الثانى من رجب عام ٧٢٥ هـ معتمدا حج بيت الله الحرام ، وهو لا يتجاوز الثانية والعشرين من عمره ، فمر بالجزائر وتونس وليبيا ووصل مصر حيث تجول فى مدنها ، وذهب الى الشام ، وبعد أن طاف بلدانها ذهب الى الحجاز حيث

أدى فريضة الحج ، وسافر منها الى العراق وطوف فيه والم ببعض المدن فى غربى ايران ثم أدى فريضة الحج مرة ثانية . ورحل من مكة الى اليمن والى شرق أفريقيا وعاد الى ظفار وعمان والبحرين ثم الى مكة ليحج للمرة الثالثة ويعود الى مصر ثم الشام والى جزيرة القرم والقوقاز والبلغار والى القسطنطينية ، ومنها رحل الى خوارزم وبخارى وافغانستان ثم دخل الهند سنة ٧٣٤ ومنها ذهب الى الصين عن طريق الملايو وعاد عن طريق سومطرة ونزل فى ظفار واتجه الى بلاد العجم فالعراق فالشام فمصر فالحجاز ليحج للمرة الرابعة ، وليعود بعدها الى مراكش عن طريق مصر فليبيا فتونس فالجزائر ، ووصل مدينة فاس فى يوم الجمعة أواخر شعبان من عام ٧٥٠ هـ ليحظى برعاية السلطان أبى عنان المرينى ومن فاس يزور مسقط رأسه طنجة ثم يبدأ رحلته الثانية ، وهى رحلة قصيرة زار خلالها بلاد الأندلس ثم عاد الى مراكش ليصحب أبا عنان الى فاس . ويودعه منها ليقوم برحلته الثالثة فى أواخر عام ٧٥٢ ، ويبقى فى مدينة سجلماسة بضعة أشهر ، ليبدأ الرحلة فى غرة المحرم

سنة ٧٥٣ الى بلاد السودان الغربى ويتوغل فى مجاهل أفريقيا الوسطى ويعود بعدها فى عام ٧٥٤ ليستظل رعاية السلطان فى بلاطه بفاس حيث يمضى بقية حياته حتى عام ٧٧٦ هـ •

هذا هو الهيكل العام لهذه الرحلة الطويلة التى استغرقت ثمانية وعشرين عاما من حياة صاحبها • ولسنا بصدد الاسهاب فى ذكر أحداثها وتفصيلاتها ، وانما نود أن نسجل بعض خصائصها وما اتصف به صاحبها ، وبعض ملاحظات حولها يمكن أن تعين فى تحديد مكانها فى مكتبة أدب الرحلة عند العرب •

وأول ما يلفت النظر فى هذه الرحلة هو أن صاحبها ما كادت تتفتح حياته على العقد الثالث من عمره حتى خلف والديه فى طنجة وراح يطوى البلاد والأقطار فى عزيمة شابة لم توهنها مشقات الزمان ولا أهوال الأخطار، فقضى ربيع حياته وشطرا من خريفه جوالا رحالا ، مغتربا عن أهله ووطنه بمحض ارادته واختياره • وان مثل هذه الروح لنادرة فى بنى البشر على مر العصور ، فليس من

اليسير أن تلد كل العصور بضعة آحاد من الأفراد يحترفون الرحلة أعمارهم كما احترفها ابن بطوطة . ولذا يمكن أن يعد هذا الرحالة طرازا فريدا لا يماثله كثيرون فى هذه الملكة الأصيلة فى نفسه ، ملكة الارتحال ، وحب الطواف والاغتراب . مما يسم رحلة ابن بطوطة بسمة تميزها عن باقى رحلات الرحالة العرب .

ولافتة أخرى ، هى أن هذا الرحالة الكبير ما كاد يستقر به بلاط فاس حتى راح يملى رحلته أو رحلاته على أحد كتاب الديوان (محمد بن محمد بن جزي الكلبى) بأمر أبى عنان السلطان . وهذه الحال تستحق وقفة نحاول فيها أن نستوضح ظروف رحالتنا وشخصيته، اذ يجب أن لا نمر على هذا الأمر مرورا سريعا . فأول ما يخطر على البال فى هذا المجال السؤال عن السبب الذى من أجله املى ابن بطوطة رحلته بطلب من السلطان على محرر من المنقطعين الى بابه أمره أن يضم أطراف ما يمليه الشيخ « مشتملا فى تصنيف يكون على فوائده مشتملا ، ولنيل مقاصده مكملا ، متوخيا تنقيح الكلام وتهذيبه معتمدا ايضاحه وتقريبه ليقع الاستمتاع بتلك

الطرف ويعظم الانتفاع بدرها عند تجريده من الصدف».
أما أن يكون الرحالة لم يدون ولو مذكرات بسيطة فى رحلته ، اذ لم يخطر بباله أو لم يرد ذلك ، فهو أمر معقول ومقبول، ولكن لم لم يطلب اليه السلطان أن يكتب رحلته بنفسه وقد أوى الى ظل ظليل من رعايته وعطفه ، ولم يرضى الرحالة أن يملى رحلته املاء على محرر يبيح له التصرف فيما يملى عليه (بنقل معانى كلامه بألفاظ موفية للمقاصد التى قصدها، موضحة للمناحى التى اعتمدها)، حيث يقول المحرر « وربما أوردت لفظه على وضعه فلم أخل بأصله ولا فرعه ... وشرحت ما أمكننى شرحه من الأسماء العجمية لانها تلتبس بعجمتها على الناس ويخطىء فى فك معماها معهود القياس » .

ان هذا النص الذى يصدر به المحرر تقديمه للرحلة لذو دلالة واضحة على أن الرحالة لم يكن يستطيع بكلامه أن يوفى معانيه للمقاصد التى قصدها ، ولا أن يوضح المناحى التى اعتمدها ، ومن هنا كانت حرية ابن جزى فى التصرف والشرح ولو (دون اخلال بأصل أو بفرع) وقد يقال ان مذكرات رحلته فى الشرق قد ضاعت منه ، ولكن

أين مـذكرات رحلتيه القصـيرتين الى الأندلس والى السودان الغربى ، وقد كانتا بعد تعرفه على أبى عنان ، وربما كان قد أحس بضرورة تدوين الرحلة وأهمية ذلك، وهاتان الرحلتان دونتا فى عجالة قصيرة مع الرحلة الأم وبنفس طريقة تدوينها . انه لأمر غير عادى ، وانها أسئلة ستبقى حائرة مالم نقطع بالعقل بأن ابن بطوطة كان أعجميا لا يتقن الكتابة بالعربية أو على الأقل ليست لديه ملكة الكتابة الأدبية . وليس من الضرورى أن يتناقض ذلك مع ماهو معروف عن ابن بطوطة من أن أسرته عنيت بالعلوم الشرعية، ومن أنه درس الفقه والأدب،أو أنه تولى قضاء الحاج المغربى ثم تولى هذا المنصب فى بعض البلاد التى زارها كالهند وجزر مالديف ، فتوليه هذا المنصب ليس بحجة على أنه كان ذا علم واسع أو مقدرة كبيرة فى علوم الشرع ، فانتظار الحاج المغربى وصول ابن بطوطة الى تونس وهو شاب حدث ليتولى القضاء فيه ان صح ذلك ، يظهر أن المنصب لم يكن ذا بال ، ثم قد لا يكون غريبا على مسلم قادم من الديار المقدسة أن يتولى ، بتوفر بعض الخصائص فيه ، منصب القضاء فى

دلهى ، وطريقة توليه هذا المنصب الذى اختاره من بين مناصب الوزارة والكتابة التى عرضت عليه وعلى بعض الآخرين مقابل هدايا قدموها للسلطان ذات دلالة لا تخفى على الفاحص • ونحن أميل الى الترجيح بأن ابن بطوطة لم يكن قد كون التكوين الدينى الكامل فى علوم الدين والشرع لصغر سنه عندما أزمع القيام برحلته ، ولما يذكره من زواجه المتعدد فى معظم البلدان التى كان يحل فيها، وكأنه لم يكن أسهل عليه من الزواج الا الطلاق • ويقوى هذا الزعم عدم مقدرتنا على استشفاف أى أثر لأى حكم شرعى أو نص فقهى يرد على لسانه فى مناسبة من المناسبات وهو القاضى المتنقل • هذا اذا غضضنا النظر عن ماهية الأمور وفحوى الموضوعات والحكايا والخرافات التى لقيت منه اهتماما أكثر من أى شىء آخر فى رحلة حياة طويلة • ونحن لا نطالبه بتذكر كل شىء بعد هذه السنوات العديدة ، ولكن نوع ذكرياته التى سجلها ينم عن منهجه العقلى وعن طريقة تفكيره • وهذا الذى ذكره ، وأقل منه أيضا يدل ، وايم الحق ، على حافظة قوية كان يتمتع بها الرجل • ومع هذا فليس من

الضرورى أن يكون عالما أو فقيها ، حتى ولو صح اجتماعه بكل من ذكر أنه لقيهم من علماء ورجال دين وقضاء . فهو ، كما يستشف من رحلته ، قد لا يخرج عن كونه رجلا مغامرا شهما كريما ، يمثل شخصية المسامر والمنادم اللبق الذى اتصل بالحياة فى بلاط السلطان برغم ما يسمه من سطحية ولا واقعية فى أمور الحياة . ومثل هذه الشخصية تليق للقيام بالدور الذى قام به ابن بطوطة وبمستواه . أما انه لو كان من نوعية العالم حقا ، فعلى الأغلب لن تتسنى له فرصة هذه الرحلة فى الأرض بالطول والعرض ، ثم هى ان سنحت فستثمر حتما ثمرا غير هذا الثمر كيفا وكما ، وما أجدره عندها بتولى القضاء فى سلطنة راعيه ابن عنان وقد استقر فى بلاطه أكثر من خمسة عشر عاما بعد تسجيل رحلته الى أن لبى نداء ربه . ونحن اذا غضضنا النظر عما يثيره بعض المستشرقين من شكوك حول هذه الرحلة أو حول بعض موادها ، فاننا لا نستطيع أن نغضه عن شكوك ومحاذير أثارها وسجلها اثنان من معاصريه ، وأولهما محرر رحلته ابن جزى ، الذى لم يستطع أن يخفى حذره

اذ قال « وأوردت جميع ما أورد من الحكايات والأخبار ولم أتعرض لبحث عن حقيقة ذلك ولا اختبار على أنه سلك فى اسناد صحاحها أقوم المسالك وخرج عهدة سائرها بما يشعر من الألفاظ بذلك وقيد المشكل من من أسماء المواضع والرجال بالشكل والنقط ليكون أنفع فى التصحيح والضبط » . وثانيهما ابن خلدون ، الذى ذكره والتقى به شخصيا ، وفيه يقول « ورد بالمغرب لعهد السلطان أبى عنان من ملوك بنى مرين رجل من مشيخة طنجة يعرف بابن بطوطة ، كان رحل منذ عشرين سنة قبلها الى المشرق ... ثم انقلب الى المغرب واتصل بالسلطان أبى عنان وكان يحدث عن شأن رحلته وما رأى من العجائب بممالك الأرض ، وأكثر ما كان يحدث عن دولة صاحب الهند ويأتى من أحواله بما يستغربه السامعون .. فتناجى الناس بتكذيبه . ولقيت أيامئذ وزير السلطان (فارس بن وردار) البعيد الصيت ففاوضته فى هذا الشأن وأرينه انكار أخبار ذلك الرجل لما استفاض فى الناس من تكذيبه .. » . ومهما يكن من أمر المستشرقين ازاء رحلة ابن بطوطة ، وتأرجح موقفهم بين الثقة التامة

فى صدقها كما يرى ! كوزغارتن Kosegarten ولى LEE) أو النقد المتطرف لها من قبل (يول Yule فاننى سأجرى مع محاولة كراتشكوفسكى تأكيد صحة الرحلة ، اذ يقول « وأخيرا ، وفى القرن العشرين نلحظ بداية عهد من الاعتراف بقيمته من جديد ، أخذ يكتسب الأنصار يوما بعد يوم •• خاصة وان رواياته عن مواضع مجاورة كجزر ملديف مثلا قد أكد الرحالة المتأخرون صحتها برمتها » على أن ذلك يجب أن لا يمنعنا من النظر الى هذه الرحلة بروح العلم والموضوعية لتوضع وصاحبها فى مكانهما من مكتبـة الرحـلات العربية ، وليكون تقويمهما بميزان أدق وأسلم •

ان حكايات الرحلة وخرافاتها وموضـوعاتها التى شـدت انتباه صـاحبها تجعله أكثر قربا الى المعتقدات الشعبية ، بل ومن كبار معتقديها ، اذ احتلت المسائل المتعلقـة بالخـرافات وحكايا الـكرامات والغـرائب والدراويش المكانة الأولى بالنسبة له • وقد لا نجيز لأنفسنا أن نؤاخذه اذ لم يلق بالا لجوانب الحياة التى تهم عصرنا ولكن هل كان بدوره يعكس بدقة واخلاص

العصر والوسط اللذين عاش فيهما وذلك على ضـوء الظروف الحضارية السائدة اذ ذاك ؟ لتكن حضارة العرب والاسلام ، كما يقول الدكتور نقولا زيادة « قد بدأت بالوقوف عن التقدم نتيجة لعوامل كثيرة ، لعل أهمها التجميد الرسمى الذى فرضته الدولة على العقل ونشاطه، فحصرت الجهد الفكرى فيما من شأنه أن يقوى كيانها ـ مؤيدا بالدين ـ ويظهر زيغ خصومها . وهـكذا فالحضارة العربية تبدو فى صفحات ابن بطوطة قليلة الحركة والنشـاط والتوثب ، وتطلع علينـا وكأنهـا لا دينامية لها » ، ولكن هل تشابهت المعتقدات وتجانست الموروثات فى البيئات الاسلامية المتعددة التنوع والتى خبرها ابن بطوطة وعاش فيها سنوات طوالا مع المعتقدات والموروثات فى البيئة المغربية التى ينقل اليها وقد حرم من أن يتمثلها تمثلا صادقا لانقطاعه الطويل عنها ، وبمقدار هذا التجانس القائم بين خرافات الرحلة وحكاياتها من مختلف البلدان ؟؟ اننا ، وقد رأينا محاولات ابن جبير فى التحقيق والتدقيق وهو سابق عليه بحوالى قرنين من الزمان ، اذا حاسبنا ابن بطوطة بموازين زميله وتقويمه

للأمور ، سنحكم قطعا بأن هذا التجانس لم يكن الا باختيار ابن بطوطة نفسه كل ما أورده ورواه لمصادفته هوى خاصا لديه يتفق ومقوماته الشخصية ، وربما كنا أكثر تدقيقا اذا حملنا محرر الرحلة - ابن جزى - مسئولية ما نقله عن بعض الرحالة السابقين .

وعلى أية حال ، فان رحلة ابن بطوطة تحتوى على كثير من الموضوعات التى تهم الجغرافى والمؤرخ والعالم الاجتماعى والأديب ، ونحن انما نقصد بالرحلة هنا الكتاب بما قصه الرحالة وبما أضافه المحرر . فقد نقل الينا ابن بطوطة فى رحلاته الطويلة هذه كثيرا عن أحوال بعض المجتمعات التى شاهدها وعاش فيها ، من عادات الناس وتقاليدهم ، وملابسهم وأطعمتهم وأشربتهم ، وبعض شعائرهم الدينية . فهو يذكر مثلا عادات أهل مكة فى صلواتهم ومواضع أئمتهم ، وفى الخطبة وصلاة الجمعة وعاداتهم فى استهلال الشهور وشهر رجب بخاصة ، ويتحدث عن عمرة رجب وعادتهم فى ليلة النصف من شعبان وفى شهرى رمضان وشوال ويذكر شعائر الحج وأعماله ، وفى ذكر عادتهم فى ليلة النصف

من شعبان يقول « وهذه الليلة من الليالى المعظمة عند أهل مكة يبادرون فيهـا الى أعمال البر من الطواف والصلاة جماعات وأفرادا • والاعتمار ويجتمعون فى المسجد الحرام جماعات لكل جماعة أمام يوقدون السرج والمصابيح والمشاعل ويقابل ذلك ضـوء القمر فتتلألأ الأرض والسماء نورا ويصلون مائة ركعة يقرأون فى كل ركعة بأم القرآن وسـورة الاخلاص يكررونهما عشرا وبعض الناس يصـلون فى الحجر منفردين وبعضـهم يطوفون بالبيت الشريف وبعضهم قد خرجوا للاعتمار » •

ويتحدث لنا عن البريد فى الهند وانه صنفان ، بريد الخيل وبريد الرجالة ، وعن خدماته التى يقدمها للسلطان بحمل الفواكه المستطرفة بالهند وخراسـان فى أطباق وتقديمها له وكذلك حمل الماء المقدس له عن مسافات بعيدة ، ثم باخباره بكل أحوال من يصل الى بلاده ، حتى اذا ما قدم عليه اكرم بقدر ما يظهر من أفعـاله وتصرفاته وهمته ، وان من مهمات البريد حمل الكبار من ذوى الرتب اذ يجعلون الرجل على سرير ويرفعـونه فوق رؤوسهم ويسيرون به شدا • وعن عادة ملك الهند

السلطان ابى المجاهد محمد شاه فى اكرام الغرباء ومحبتهم وتخصيصهم بالولايات والمراتب الرفيعة يقول « ومعظم خواصه وحجابه ووزرائه وقضاته وأصهاره غرباء ونفذ أمره بأن يسمى الغرباء فى بلده الأعزة فصار لهم ذلك اسما وعلما ولابد لكل قادم على ذلك الملك من هدية يهديها اليه ويقدمها وسيلة بين يديه فيكافئه السلطان عليها بأضعاف مضاعفة ، مما جعل التجار يقبلون على تجهيز القادمين وادانتهم كل ما يحتاجونه هدية للسلطان فتنفق تجارتهم وتكثر أرباحهم بعد عطايا السلطان لهؤلاء القادمين . ولا يفوته أن يسجل بعض عادات بلاط السلطان فى الهند ، فى ترتيب داره وحجابه وجلوسه وفى دخول الغرباء وأصحاب الهدايا عليه ، وفى دخول هدايا عماله اليه وفى خروجه للعيدين وجلوسه يوم العيد وغير ذلك من عادات فى توديعه أو استقباله عند السفر وفى ترتيب الطعام للعام وللخاص فى داره . وعن تعيينه قاضيا لدار الملك فى دلهى يقول بعد أن يفصل فى دخوله مع بعض الغرباء الى حضرة السلطان ومقابلته لهم « ثم بعد ذلك أمر لنا بالمرتبات

فعين لى اثنى عشر آلف دينار فى السنة وزادنى قريتين على الثلاث التى أمر لى بها من قبل .. وفى بعض الأيام بعث لنا خداوند زاده وغياث الدين وقطب الملك صاحب السند فقالا (كذا) لنا أن خوند عالم يقول لكم من كان منكم يصلح للوزارة أو الكتابة أو الامارة أو لقضاة التدريس أو المشيخة أعطيته ذلك » . وبطلب ابن بطوطة عينه السلطان فى منصب قاضى دار الملك . ويفيض كثيرا فى ذكر عطايا السلطان وهداياه . وحديثه عن بلاد الهند يطول فيتناول فيه عادات أهل البلاد فى الجنائز وحرق الموتى وإحراق زوجاتهم أنفسهن بعدهم . ويتحدث عن نباتات الهند وحبوبها وفواكهها والغلاء والمجاعة التى وقعت فيها فى سنة من السنوات ، ويبين فى ذلك من مفارقات الحكم الشىء العظيم اذ يقول « .. ولما اشتد الحال أمر السلطان أن يعطى لجميع أهل دلهى نفقة ستة أشهر فكانت القضاة والكتاب والأمراء يطوفون بالأزقة والحارات ويكتبون الناس ويعطون لكل نفقة ستة أشهر » . وهذا من غرائب الأحوال أن يضطر الناس لأكل جلود الخيل واللحوم

البشرية وصاحب البلد يستطيع أن يوزع عليهم نفقةستة أشهر سلفا . ومهما يكن من أمر هذا الخبر وغيره ، فانه يدل على نوع المجتمع الذى كان يقوم فى تلك الأيام .
ومن الصين ينقل الينا صورا عن كثير من جوانب الحياة فيها ، فالكفار من أهلها يحرقون موتاهم كما تفعـــل الهنود ، وهم يأكلون لحم الخنزير والكلاب وهم أهل رفاهية وسعة عيش ، الا أنهم لا يحتفلون فى مطعـم ولا فى ملبس . والحرير عنـــدهم كثير لكثرة الدود ورخص تربيته ، والثوب منه أرخص بكثير من ثـوب القطن . « وعادتهم أن يسبك التاجر ما يكون عنده من الذهب والفضة قطعا تكون القطعة منها من قنطار فمـا فوقه وما دونه ويجعل ذلك على باب داره ومن كان له خمس قطع منها جعل فى اصبعه خاتما ومن كانت له عشر جعل خاتمين .. وأهل الصين لا يتبايعون بدينار ولا درهم وجميع ما يتحصل ببلادهم يسكبونه قطعا كمـا ذكرناه وانما بيعهم وشراؤهم بقطع كاغد كل قطعة منهـا بقدر الكف مطبوعة بطابع السلطان .. واذا تمزقت تلك الكواغد فى يد انسان حملها الى دار كدار السكة عندنا

فأخذ عوضها جددا ودفع تلك ، ولا يعطى على ذلك أجرة ولا سواها لأن الذين يتولون عملها لهم الأرزاق الجارية من قبل السلطان » ويتكلم عما خص به أهل الصين من احكام الصناعات وخاصة التصوير الذى لا يجاريهم أحد فى احكامه « ولقد دخلت الى مدينة السلطان فمررت على سوق النقاشين ووصلت الى قصره مع أصحابى ونحن على زى العراقيين فلما عدت من القصر عشيا مررت بالسوق المذكور فرأيت صورتى وصور أصحابى منقوشة فى كاغد قد الصقوه بالحائط فجعل الواحد منا ينظر الى صورة صاحبه لا تخطىء شيئا من شبهه . وذكر لى أن السلطان أمرهم بذلك وانهم اتوا الى قصره ونحن به فجعلوا ينظرون الينا ويصورون صورنا ونحن لم نشعر بذلك وتلك عادة لهم فى تصوير كل من يمر بهم وتنتهى حالهم فى ذلك أن الغريب اذا فعل ما يوجب فراره عنهم بعثت صورته الى البلاد وبحث عنه فحيثما وجد شبه تلك الصورة أخذ » . وهو من هذه الناحية يصور الحياة فى الصين على درجة من التنظيم فلا يسافر جنك من جنوكهم الا ويكتب صاحب

البحر من عليه من الرماة والخدم والبحرية ليعرف من يعود منهم ومن لا يعود ، وصاحب الجنك مسئول عن ذلك فيبرهن على موت المفقود أو فراره ، وهم يتشددون فى ضبط السلع والبضائع المجلوبة وتسجيلها لمحاسبة المخالفين ومجازاتهم . وللصينيين عادة حميدة فى منع التجار عن الفساد وفى حفظ آموال الغرباء وتجاراتهم فى المدن وفى الطرق ولهم فى ذلك طرق مشددة . ولا يفوت ابن بطوطة أن يتحدث عن المسلمين فى الصين ، فهم يعيشون فى مدن خاصة بهم ، « ولهم فيها المساجد لاقامة الجمعات وسواها . وهم معظمون محترمون » . وفى سومطرة يرينا مظاهر احتفالهم بالأعراس كما رآها اثناء اعراس ابن سلطانها الملك الظاهر . وخبر رحلته الى الأندلس لا يطول ، ولا يذكر فيه شيئا ذا بال . أما رحلته الأخيرة الى السودان الغربى فقد لقيت منه اهتماما أكبر وأوفى ، ونقل لنا خلالها كثيرا من مشاهداته عن الحياة الاجتماعية فى البلدان التى مر بها ، ومن ذلك ما يقوله فى مسوفة الساكنين بايوالاتن ، وهى أول عمالة السودان « وشأن هؤلاء القوم عجيب وأمرهم غريب

فاما رجالهم فلا غيرة لديهم ولا ينتسب أحدهم الى أبيه بل ينسب لخاله ولا يرث الرجل الا ابناء آخته دون بنيه وذلك شيء ما رأيته فى الدنيا الا عند كفار بلاد المليبار من الهنود واما هؤلاء فهم مسلمون ومحـــافظون على الصلوات وتعلم الفقه وحفظ القرآن وأما نساؤهم فـلا يحتشمن من الرجـــال ولا يحتجبن مع مواظبتهن على الصلوات ومن أراد التزوج منهم تزوج لكنهن لايسافرن مع الزوج ولو أرادت احــــداهن ذلك لمنعها أهلها • والنساء هنالك يكون لهن الأصــــدقاء والأصحاب من الرجال الاجانب وكذلك للرجال صواحب من النســاء الأجنبيات ويدخل احدهم داره فيجـــد امرأته ومعهــا صاحبها فلا ينكر ذلك » • وهو يحفظ لنا فى هذه الرحلة من عادات أهل الســودان وتذللهم لملــكهم وتتريبهم أنفسهم أمامه ــ أى أن يحثوأحدهم التراب على رأسه وظهره كما يفعل المغتسل بالماء ــ عندما يكلمه السلطان والكثير من الغرائب والمضحكات • وثمة أمور دونهــا فى هذه الرحلة مما استحسنه من أفعال السودان كقــلة الظلم وشمول الأمن فى بلادهم وعدم تعرضهم لمال من

يموت فى بلادهم من البيضان ، ومما استقبحه منهـا كظهور الخدم والجوارى والبنات الصغار عرايا أمـام الناس وفى دار السلطان حتى فى شهر رمضان . وممـا حدث به خبر بعض أهل السودان الكفرة من أكلة لحوم البشر الذين لا يأكلون البيضان لأن أكل الأبيض فى نظرهم مضر لانه لم ينضج فى بطن أمه اذ أن الأسـود هو النضج بزعمهم .

ومن الملاحظ أن ابن بطوطة لم يهتم بالأقطار الا قليلا ، فهو انما يصف المدن باعتبار من يقطنها من الناس فقد كان الناس موضع اهتمامه ، ولذلك تصدى ابن جزى كما نعتقد ــ بما اعتبره خدمة منه ، لوصف بعض المدن باعتماده على كتابات سابقة كرحلة ابن جبير مثـلا فى وصف بغداد وحلب ودمشق ونصيبين، متناسيا أن أهمية الوصف هنا تتأتى عن كونها تصور الموصـوف أيام الرحالة وكما شاهده وعاينه بنفسه ، والا فما فائدة أن يصف لنا بغداد مثلا كما رآها ابن جبير قبله بنحو مائتى عام ، ونحن نريد أن نعرفهـا كمـا رآها هو فنقف

على ما آلت اليه خلال هذه المدة • ومثل هذا ما نقله عن ابن جبير أيضا فى وصف الحجر الأسود وأثر تقبيله عند الحجاج • ويبدو على الاجمال أن لعامل الزمن الى جانب شخصية ابن بطوطة أثرا كبيرا فى هذا الاتجاه • ومن هنا فنحن لا نستغرب اهتمامه بذكر الشخصيات العلمية والدينية التى التقى بها فى كل بلد حل فيه • فهـــو دائما موضع الاحتفاء والتكريم • ويبدو أنه كان يستشعر لذة خاصة فى ذكر الأشخاص الذين عرفهم وفى التحدث عنهم • وهم بهذا يشغلونه كثيرا حتى لكأن ذكرهم هواية وتبرك ، فيروى من كراماتهم وأحاديثهم فيشوق القارىء ويطلعه على نواح من حياة المجتمع فى زمنه • ويتصل بذكر هؤلاء الناس الفيض العميم من الحكايا والكرامات التى يذكرها عنهم ولهم أو لغـــيرهم • وأكثر من هذا الخرافات التى سيطرت على معتقد الرحالة ، فادنته الى معتقدات العامة بل وأصبح من منابعها وأصولها فى هذه الرحلة ، فهو يفيض فى ذكرها دون أن يبدى أى لون من ألوان الحذر أو التحفظ مما أثار فى نفوس معـــاصريه عوامل الشك والريبة فى أحاديثه • ومن المرات النادرة

التى نرى فيها ابن بطوطة يحاول التحقق أو امتحان معتقد العامة ما يرويه عن احدى صوامع مسجد البصرة التى تتحرك بزعمهم عند ذكر على بن أبى طالب حيث يقـول « صعدت اليها من أعلى سطح الجامع ومعى بعض أهل البصرة فوجدت فى ركن من أركانها مقبض خشب مسمرا فيها كأنه مقبض مسلسة البناء فجعل الرجل الذى كـان معى يده فى ذلك المقبض وقال بحق رأس أمير المؤمنين على رضى الله عنه تحركى وهز المقبض فتحركت الصومعة فجعلت أنا يدى فى المقبض وقلت له وانا أقول بحق رأس أبى بكر خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم تحركى وهززت المقبض فتحركت الصومعة فعجبوا من ذلك » .

واذا كنا نستغرب اغراقه فى ذكر ذلك الحشد الهائل من أسماء الأشخاص الذين لقيهم وتعرف بهم ، فليس لنـا أن نستغرب ذكره للسلاطين والأمراء الذين كان محـل حفاوتهم واعزازهم ، يقربونه حيثما حل ، ويزودونه بكتب التوصية حيثما رحل ، فلا نراه يودع حاكما الا ليلقى آخر منهم وكأنه مبعوث رسمى كما تحكى الرحلة ، وهو فى غالب الأحيان مادح لهم ، قاصد عطاءهم .

حقا ، قد يبدو آثر الاسلام فى كثير من أجـزاء الرحلة ، وحتى فان سرد ابن بطوطة لكثير من حكاياته والكرامات التى أتى عليها ليبين ذلك بالاضافة الى بعض تعبيراته ودعواته الدينية من مثل « جزاه الله أفضـل الجزاء عن الاسلام والمسلمين » . « واستخرت الله عز وجل » ، وبالاضافة الى اهتمامه برجال الدين ومدح أهل بعض البلاد بأنهم أهل صـلاح وديانة محافظون عـلى الصلاة وحفظ القرآن ، واستقباحه تعرى النساء فى بلاد السودان ، ومحاولاته عبثا وهو قاض فى جزائر (ذيبة المهل) ، أن يفرض التستر على نسائها . ولكن كل هذه المظاهر تبدو سطحية ساذجة منه ، ويبدو هو شـخصا عاديا لا يتمتع بأية مواهب خاصة ولا ينعكس فى رواياته أى أثر لفكر متعمق ، أو نظر متأمل أو ملاحظة دقيقة ، فمشاهداته يحكيها بكل بساطة وسذاجة .. ومن كلامه على السلاطين والحكام المسلمين الذين اتصل بهم يمكننا أن نتصور ملامح بسيطة للمجتمع السـياسى لديهم ، ويبدو هذا المجتمع فى غاية البساطة والاستغلال من قبل حكامه ، وابن بطوطة القاضى الفقيه الذى طاف معظـم

أنحاء العالم الاسلامى وقتها لا يكاد يحرك لسانه بكلمة واحدة توجه أو تنقد ، على عكس ما رأينا من مواقف حادة من ابن جبير فى عيذاب وفى مكة نفسها ازاء تصرف أميرها ، مكثر بن عيسى ، مع الحجاج ومع حاجب الكعبة فهل يكون لتراخى الزمن ، بالنسبة لابن بطوطة ، بين رحلته وبين تسجيلها ، ثم لتكريم هؤلاء السلاطين مثواه أثر فى موقعه وضربه صفحا عن ذلك كله ؟

أسلوب كتابة الرحلة :

من المعروف أن السلطان أبا عنان ، سلطان فاس كان صاحب الفضل فى ظهور كتاب وصف رحلة ابن بطوطة ، فهو الذى وفر له محررها الأدبى من كتاب ديوانه . وتدل القرائن على أن رحالتنا ، على الرغم من ولعه بالقصص ، لم يكن ذا ميل الى الكتابة لسبب أو لآخر ، وانه لم يملك مذكرات لرحلته عند املائها ، فهى اما أن تكون ضاعت منه أو أنه لم يكتبها أصلا كما هو الأغلب . ومن هنا فان سرده حوادث هذه الرحلة لم يكن متمثلا فى ذهنه بهدف اخراجها كتابا متكامل

الجوانب ، بدليل تقطع الحكايات وعدم اتصال الأحداث فيها باستمرار وانما كان كل همه أن يقدم مادة هذا الكتاب الى المحرر بلا تنسيق • وقد أثر ذلك على منهج الكتاب وعلى التسلسل والتكامل فيه ، برغم الجهد الواضح الذى بذله الكاتب للربط بين هذه القصص والأخبار • ومن هنا فان طريقة المشاركة فى الاملاء والتدوين جعلت من الصعب الارتفاع بأسلوب الرحلة الى النمط الجيد والتدوين المتكامل المترابط ، فبدا اختلاط الأسلوبين واضحا ، وعرى التسلسل مفككة وغير مترابطة فى أكثر أجزاء الكتاب فجاء مفتقرا الى التناسب والتناسق • فلغة السرد القصصى التى يعرض فيها الرحالة أخباره وحكاياته ، لغة قصصية بسيطة أميل ما تكون الى لغة المحادثة العادية ، أو أقرب ما تكون الى ما يمكن أن يسمى « باللهجة الشخصية » ، وان اكتنزت بتفاصيل غنية وكثيرة • ولا غرابة فى ذلك اذ لم يكن همه عرض قدرة لغوية أو ملكة أدبية ، وانما همه أن يقص ما لديه من حكايات ومشاهدات • وهذا أمر طبيعى مع رحالة طوف هذه السنوات فى أرجاء الأرض ، وفى مثل ظروف

ابن بطوطة وأحواله • وبجانب هذا يبدو منهج ابن جزى وأسلوبه واضحين تمام الوضوح ، فمن حيث الأسلوب يبدو فيه الميل انجلى الى السجع والأطناب ، والحشو المتكلف مما يجعله ثقيلا واضح الصنعة الى جانب أسلوب الرحالة ولغته ، بادى التميز والاختلاف عنه ، اذ كان همه الأكبر عرض قدراته اللغوية واطلاعه الأدبى • أما من حيث منهجه ، فقد أشار هو نفسه الى جانب منه فى تقديمه للرحلة عندما أشار الى موقفيه المتباينين من كلام ابن بطوطة ، فهو حينا يثبته بنصه الصريح دون تغيير أو تحريف ، وحينا آخر يصوغه بصنيع من انشائه الخاص، مما أدى الى اختلاط الأسلوبين فى تأدية المعانى • ولقد حاول دارسو الرحلة التفريق بين الأسلوبين فقالوا أن المقدمة والخاتمة وبعض مقدمات الأوصاف وخاصة فيما يتعلق بأوصاف المدن من انشاء ابن جزى ، وما تبقى من املاء ابن بطوطة •

ومحاولات ابن جزى فى جمع ما أملاه الشيخ من قصص فى وحدة متماسكة متناسقة جلية واضحة فى الكتاب • ويتمثل تدخله من ناحية أخرى ، كما يبدو

على طول الكتاب ، فى اضافته معلومات من لدنه على ما يملى عليه ، وفى اثباته أبياتا من الشعر له أو لغيره يستشهد بها بمناسبة أحيانا وبغير مناسبة أحيانا أخرى . وهو يشير الى ذلك بقوله فى بداية اضافاته (قال ابن جزى) وبعد أن ينهى ما يريد اضافته أو الاستشهاد به مع الاشارة الى صاحبه يردف بكلمة (رجع) بين قوسين ايذانا بالعودة الى تسلسل الاملاء . وهذا متكرر كثيرا على طول الرحلة . ونراه يتدخل على هذا النمط أحيانا للتعليق على أبيات وردت فى النص . وهو فى هذا انما يحاول، دون ريب، اثبات اطلاعه وقدرته الأدبية وتطعيمه نص الرحلة ليكسب بهذا التزويق كلام صاحبها حيوية أكثر تقربة الى النصوص الأدبية . وهو لا ينكر انه نقل بعض الأوصاف عن أخرين ، فيذكر أحيانا ما أخذه عن ابن جبير فى وصفه بغداد مثلا ولكنه لا يشير اليه فيما أخذ عنه فى وصف نصيبين والحجر الأسود . وابن جزى ، كما أشار ، كان حريصا على « قيد المشكل من أسماء المواضع والرجال بالشكل والنقط ليكون أنفع فى التصحيح والضبط » ، وهو يشرح ما أمكنه شرحه من

الأسماء العجمية لأنها تلتبس بعجمتها على النـاس •
ولا يفوتنى أن أشير هنا الى كثرة العنوانات فى الرحلة
وعدم ترتيب سردها أو تنسيقها أمام الفيض الزاخر من
المادة التى يقدمها الرحالة وأمام تنوع هذه المادة وعدم
ترابطها ، فجاءت كثرة هذه العنوانات متمشية مع املاء
صاحبها ومحاولة لتصنيف هذا الفيض وايقافه عند حدود
ضيقة تنتهى مع كل خبر أو حكاية ، فهى تجزئة من نحو
ومحاولة للتنسيق والضبط من نحو آخر • هذا ، واذا
كان لا بد من كلمة أخيرة على أسلوب الرحلة ومنهجها
فلا شك أن ابن جزى يجازى على جزء من عيوبهما كما
يجزى على فضل تسجيلها وحفظها للأجيال التالية •

تقويم الرحلة :

أشرت فيما سبق الى ما أثار ابن بطوطة من شكوك
معاصريه فى أخبار رحلته بسـبب ما أضفى عليها من
مبالغات وعجائب ، كما أشرت الى موقف المستشرقين
الذين أطلعوا على هذه الرحلة وما آل اليه هذا الموقف
فى مطالع القرن العشرين من تقدير لها بعد محاولات
تحقيق بعض أخبارها ومعلوماتها التى كانت موضع شك

فيما سبق • ومع ذلك فان بعض الملاحظات على هذه الرحلة تعرض نفسها مع كل محاولة لتقويمها • فكل ما أشار اليه ناقدو الرحلة من خلط صاحبها الشديد المتعلق بآسية الصغرى ومبالغته فى سرد أخباره ، واهماله التفصيل فى وصف المدن والامصار ، وذلك مما لا تغنى عنه اقتباسات ابن جزى عن سابقيه ، ومن عدم اتباع ترتيب معين فى سرد الأحداث والأخبار والحكايات سيبقى عيوبا ونقائص تعتورها حتى وان فسرنا ذلك بالفارق الزمنى بين الرحلة وبين املائها وعدم توفر مذكرات فيها وما يسبب ذلك من خطأ أو نسيان ، فذلك ليس بالمبرر الكافى اذا ما تذكرنا ان رحالتنا بقى يحتفظ بكثير من التفصيلات الدقيقة التى قد تكون أكثر قابلية للنسيان لولا اهتمامه الزائد بها لموافقتها هوى فى نفسه كذكره مئات الأسماء التى التقى بأصحابها فى الأقطار العديدة التى زارها • واذا كنا نقنع بامكان بقاء هذه القصص والأخبار فى ذهنه ، فان استمرار حفظه لقياسات المساجد والأماكن المتعددة التى ذكر أطوالها وقياساتها لما يثير الدهشة والتساؤل • واذا ضربنا صفحا عن هذا

كله فان افتقار رحلته الشديد الى التدقيق والنقدالتحليلى ليطبعها بطابع الرحلة الخرافية اذ هى فى أجزاء كثيرة منها ضرب من الحكايات والأساطير الشعبية • ولو أثبت ابن بطوطة انه حاول استخدام التحقيق والتحليل والنقد محكا للنظر فى الأمور لصفى كثيرا من أخباره وغربلها ، وارتفع بقيمتها وبالتالى أكسب رحلته أهمية أكبر ، على غرار ما حاول ابن جبير فى بعض الأحيان • فكلاهما سمع فى مكة ما هو شائع بين الناس عبر الأجيال من فكرة زيادة ماء زمزم ، فأورد هو الخبر فى سذاجة وبساطة كما سمعه على علاته برغم زيارته لمكة أربع مرات كما يقول ، فى حين أن ابن جبير حاول التثبت من ذلك وأثبت بالتجربة بطلان هذا المعتقد • وهناك أمور أخرى لا بد من الاشارة اليها ، منها اختصاره الشديد فى وصف طريق خروجه فى شمال آفريقيا ، واذا فسرنا ذلك بنسيانه التام لبعد الزمن ، فما كان أجدره بوصفه فى طريق العودة • وكذلك كان جديرا به أن يقارن بين أحوال البلاد التى تعددت زياراته لها ، كمكة ومصر مثلا ، خاصة وهو يتعمد تقدر ما يمكنه أن لا يعود من طريق سلكها

من قبل . واذا كنا نتساهل معه فى ذلك ، فان اختصاره الشديد فى وصف رحلتيه الى الأندلس وبلاد السودان الغربى ، وهو حديث عهد بهما عند املائه أخبارهما ، وتشابه منهجه فى سرد أخبارهما مع منهجه السابق فى طابعه العام لما يؤكد الحكم بعدم قوة ملاحظته وعدم تعمقه فى النظر الى الأشياء ، فهاتان الرحلتان مع رحلة عودته من مصر بصورة خاصة كانتا جديرتين بأن تثيرا احساساته وتنبهانها بشكل فعال ومؤثر وعلى صورة مختلفة عما سبق ، ثم ان طنجة مسقط رأسه لم تثر فيه عندما زارها أية عاطفة تدعوه لمقارنة أحوالها يومئذ بما يذكره عنها أيام خروجه الأول منها .

وعلى أية حال ، فان ابن بطوطة بهذه الرحلة العظيمة ، يمثل المواطن الاسلامى الذى طاف أرجاء العالم الاسلامى فى القرن الثامن الهجرى بدافع المغامرة والتجارة أو حب الرحلة المجرد وسيبقى دليلا على وحدة الشعور الاسلامى أيامها فى أمصار الاسلام المتعددة . وسيبقى يمثل نوعية فريدة من الرجال الرحالين على مدى الدهور ، فقد قدم من خلال رحلته هذه كثيرا من

المعلومات التاريخية والجغرافية عن مناطق معروفة ومناطق أخرى فى الشرق الأقصى وفى بعض مجاهل أفريقيا لم تكن معرفتها واسعة الانتشار ، ان لم تكن معدومة أحيانا . ولا يقلل من أهمية هذه المعلومات ما تزخر به الرحلة من أخبار وحكايات غريبة تطبعها بطابع اسطورى وتسمها بسمة الرحلة الخرافية كما أشرت من قبل . وسنظل نعتبر رحلة ابن بطوطة ، مع كونها صياغة أدبية لروايته ، حررها ابن جزى ، وبرغم ما أفقدتها هذه المشاركة من حيوية ، جهدا أثرى به العرب فى جملة ما أثروا التراث الانسانى ، حتى فى مجال هذه الخرافات أو الحكايات الشعبية .

٣ ـ التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا

يعتبر هذا الـكتاب نموذجا جيدا لنمط الترجمة الذاتيـة (الاوتـو ـ بيوجرافيـا Auto-Biography حيث يترجم المؤلف لسـيرة حياته بقلمه • وليس ابن خلدون الأول من بين المؤلفين العرب والمسلمين الذين ترجموا لأنفسهم ونحوا هذا المنحى الفنى فى التأريخ الذاتى ، وانما يعتبر المجلى بينهم فى هذا المضمار ، فقد سبقه ياقوت الحموى عندما ترجم لنفسه فى معجمه عن

الأدباء ، ولسان الدين بن الخطيب ، معاصر ابن خلدون وصديقه فى كتابه « الاحاطة فى آخبار غرناطة » ، والحافظ بن حجر فى كتابه « رفع الأصر عن قضاة مصر » ، وهو معاصر له كذلك . وفرق ابن خلدون عن هؤلاء انه لم يقنع مثلهم بترجمة موجزة مقتضبة عن أنفسهم ، فقد أفاض فى التعريف بذاته ، وفى تقديم نفسه افاضة دقيقة وشاملة ، اذ غطى آخبار سيرته وأهم احداث حياته بشىء من التفصيل الى ما قبل رحيله عن الدنيا ببضعة أشهر . وهو حينما وضع كتابه ، جعله بعنوان « التعريف بابن خلدون مؤلف هذا الكتاب » وذيل به كتابه « العبر » ، ثم أدخل عليه كثيرا من التعديلات والتنقيحات والزيادات فى المراحل التى عرض لتأريخها فى وضعه الأول وأضاف اليه تاريخ المراحل الأخيرة من حياته ، ووصل فى رواية حوادثه الى نهاية سنة ٨٠٧ هـ . فعظم بذلك حجم الكتاب مما دعاه الى أن يستبدل بعنوانه القديم عنوانا آخر يدل على سعة ما عرض له ، وشموله لجميع مراحل حياته ، فسماه التعريف بابن خلدون مؤلف الكتاب ورحلته غربا وشرقا

وقد لا يبدو الكتاب على غرار كتب الرحلات المعروفة لابن جبير وابن بطوطة مثلا ، فهو يختلف عنهما فى نمطه ، اذ يقتصر مؤلفه على تسجيل ظواهر خاصة من الحياة يعرضها فى خدمة هدفه الأساسى ، الترجمة لنفسه والتعريف بحياته ، وهى حياة أغنت مادة الكتاب بتنقل صاحبها فى غرب البلاد الاسلامية وفى بعض أجزائها الشرقية ، فقامت بذلك على السفر والرحلة . ومن هنا، وبهذا المفهوم يتأتى اهتمامنا بالكتاب وان ضيق ابن خلدون مناظيره عن قصد ، محكوما بهدف الكتاب ، فقصر اهتمامه على مجالات محددة ، وفى نواح بعينها ، ابرزها لتكون صلب الكتاب ومحوره .

وحياة ابن خلدون بخصبها وغناها ، وشخصيته بتعدد جوانبها وتنوع مزاياها ، ليست مدار اهتمام هذه الدراسة ولا محل نظرها حتى ولو من الناحية التى أولاها اهتمامه فى كتابه . ويكفينا أن نقول ان حياة ابن خلدون لم تكن كحياة الآحاد العاديين تسير فى هدوء واستقرار ، وانما كانت حياة صاخبة مضطربة ، اذ ارتبطت بحياة كثير من الدويلات والحكام فى الغرب

والشرق ، ففاض كتابه من هذه الناحية بما كان يخوض
فيه من مكايد ومؤامرات ، حيث نهض طوال ما يزيد
على نصف قرن من الزمان باعباء وظائف ديوانية وسياسية
وقضائية ، وتقلب فى خدمة القصور والدول فى المغرب
والأندلس ومصر ، يدرس أحـــوالها ويحلل أمورها ،
ويتغلغل بين القبائل يتأمل طبائعها وتقاليدها وأحــوال
حياتها • وقد انقطع فترات من حيـــاته الى الدراسة
وعكف على التأليف يفيض من علمه وخبراته فى مؤلفاته
المهمة، ويطبعها بخصائص شخصيته ومزاياها، فجاء كتابه
(التعريف) ليعكس شخصية ابن خلدون المؤرخ والأديب
أكثر مما يعكس شخصية ابن خلدون العالم الاجتماعى
أو الرحالة • ولا غرو فى ذلك ، فهو انما يترجم لنفســه
من خلال تاريخ الدويلات التى عاصرها وعاش أحداثها ،
وقد صنع كثيرا من هذه الأحداث ، بل وشارك فى خلق
بعض تلك الدول أو الحكومات التى مثلت الأدوار ،
وتبادلت الظهور والاختفاء على مسرح التاريخ فى الشمال
المغربى من دولة الحفصيين الى دولة بنى عبد الواد والى
بنى مرين وغيرهم • وقد امتد نطاق عمله الى دولة بنى

الأحمر فى غرناطة عندما هاجر الى الأندلس بعد أن سدت فى وجهه قصور المغرب وأصبح موضع ريبة فيها. ولم يقتصر نشاطه على المغرب والأندلس وحسب ، وانما امتد أيضا الى مصر مع حكم الظاهر قلاوون . فتولى التدريس فى الأزهر وفى بعض المدارس الكبيرة فيها ، وتولى منصب قاضى قضاة المالكية عدة مرات . وقد عاصر غزو المغول أيام تيمور لنك لبلاد الشام ، وشارك فى مقابلته فى دمشق فى وفد من العلماء . كل هذه الأحداث فى مغرب العالم الاسلامى وفى شرقه دونها ابن خلدون من خلال تعريفه بنفسه لمشاركته فيها وصنعه لبعضها . ولم يقتصر تعريفه بنفسه على عرض هذه الجوانب العامة من حياته ، فانه تناول فى ترتيب منطقى جوانب حياته الخاصة ، فذكر لنا نسبه وتكوينه العلمى ، وأفاض فى ذلك افاضة دقيقة ، فذكر شيوخه الذين أخذ عنهم ، وترجم لبعضهم ترجمات خاصة مطولة ، ولم يكتف بذلك ، بل ذكر الكتب التى درسها على كل منهم واجازاته العلمية ، وكان فى ذلك كله دقيقا كل الدقة . ومن الملاحظ أن شخصية القاضى بعلمه ورزانته ،

وشخصية المؤرخ بتحقيقه وتدقيقه ، تسيطران على ابن خلدون فى وصفه للأشخاص ، فهو يتناول فى الحـديث عن مشايخه مناقبهم وعلمهم وكتبهم وبالتالى مشيختهم . وأبرز وصف سجله ما قاله فى تيمور لنك بعد أن كان لقيه فى دمشق ، وهو وصف ينم عن جوانب اهتمامه وتحقيقه ، يقول « وهذا الملك (تمر) من زعماء الملوك وفراعنتهم ، والناس ينسبونه الى العلم ، وآخرون الى اعتقاد الرفض ، لما يرون من تفضـيله لأهل البيت ، وآخرون الى انتحال السحر ، وليس من ذلك كله فى شىء . انما هو شديد الفطنـة والذكاء ، كثير البحث واللجـاج بما يعلم وبما لا يعلم . عمره بين الستين والسبعين ، وركبته اليمنى عاطلة من سـهم اصابه فى الغارة أيام صباه ، على ما أخبرنى ، فيجرها فى قريب المشى ، ويتناوله الرجال على الأيدى عند طول المسافة ، وهو مصنوع له ، والملك لله يؤتيه من يشاء من عباده » .

ويبدو أن شخصية المؤرخ العلمية التى استولت على ادراك ابن خلدون وذهنه فى هذا الكتاب قد أخمدت ملكة الوصف الجغرافى لديه ، فلم يطرق فى هذا المجال

الا ما قاله فى وصف القاهرة « .. رأيت حضرة الدنيا وبستان العالم ، ومحشر الأمم ، ومدرج الذر من البشر وايوان الاسلام، وكرسى الملك، تلوح القصور والأواوين فى جوه ، وتزهر الخوانك والمدارس بآفاقه ، وتضىء البدور والكواكب من علمائه ، وقد مثل بشاطىء بحر النيل نهر الجنة ، ومدفع مياه السماء ، يسقيهم النهل والعلل سيحه ، ويجبى اليهم الثمرات والخيرات ثجه ومررت فى سكك المدينة تغص بزحام المارة ، وأسواقها تزخر بالنعم . وما زلنا نحدث عن هذا البلد ، وبعد مداه فى العمران واتساع الأحوال » . وتطبيقا لمنهجية علمية يذكر أقوال بعض شيوخه وأصحابه عنها ، فأبو عبد الله المقرى يقول له وقد مر بها عائدا من الحج « من لم يرها لم يعرف عز الاسلام» ، وأبو العباس بن ادريس يقول له فيها « كأنما انطلق أهله من الحساب » ، مشيرا بذلك الى كثرة أممه وامنهم العواقب . وينقل عن أبى القاسم البرجى فى ذلك، قوله « ان الذى يتخيله الانسان ، فانما يراه دون الصورة التى تخيلها ، لاتساع الخيال عن كل محسوس ، الا القاهرة ، فانها أوسع من كل ما يتخيل

فيها » . وفيما عدا ذلك فلا نراه يتعرض لوصف ذى بال، فهو يحج بيت الله الحرام ويعود ولا يذكر شيئا أكثر من طريق الذهاب والاياب ، فلا يتعرض لوصف مكة أو الكعبة أو أى مشعر من مشاعر الحج . وكذلك فهو يزور بيت المقدس وبيت لحم ومدفن الخليل فلا يزيد على قوله « ووصلت القدس ، ودخلت المسجد ، وتبركت بزيارته والصلاة فيه ، وتعففت عن الدخول الى القمامة لما فيها من الاشادة بتكذيب القرآن ، اذ هو بناء أمم النصرانية على مكان الصليب بزعمهم ، فنكرته نفسى . ونكرت الدخول اليه وقضيت من سنن الزيارة ونافلتها ما يجب ، وانصرفت الى مدفن الخليل عليه السلام . ومررت فى طريقى اليه ببيت لحم ، وهو بناء عظيم على موضع ميلاد المسيح ، شيدت القياصرة عليه بناء بسماطين من العمد الصخور ، منجدة مصطنعة ، مرقوما على رؤوسها صور لملوك القياصرة ، وتواريخ دولهم ، ميسرة لمن يبتغى تحقيق نقلها بالتراجمة العارفين لاوضاعها ، ولقد يشهد هذا المصنع بعظم ملك القياصرة وضخامة دولتهم » .

ويبدو كذلك أن الحياة الاجتماعية لم تكن موضوع اهتمام ابن خلدون اذ لم تجد لديه أى اهتمام او ذكر لها الا بمقدار ما يتضمن سرده للاحداث التى مر بها فى حياته ومع ذلك فقد أجاد الحديث فى فساد القضاة وخراب ذمم الكتاب والمفتين فى مصر ، وفى محاولاته اصلاح الأمر يقول فى حديث طويل جامع ما نقتضب منه تاليا « .. فقد كان البر منهم مختلطا بالفاجر ، والطيب ملتبسا بالخبيث ، والحكام ممسكون عن انتقادهم ، متجاوزون عما يظهرون عليه من هناتهم لما يموهون به من الاعتصام بأهل الشوكة ، فان غالبهم مختلطون بالأمراء ، معلمين للقرآن ، وائمة فى الصلوات ، يلبسون عليهم بالعدالة ، فيظنون بهم الخير ، ويقسمون لهم الحظ من الجاه بتزكيتهم عند القضاة ، والتوسل لهم ، فاعضل داؤهم وفشت المفاسد بالتزوير والتدليس بين الناس منهم ، ووقفت على بعضها فعاقبت فيه بموجع العقاب ، ومؤلم النكال .. وكان منهم كتاب لدواوين القضاة ، والتوقيع فى مجالسهم ، قد دربوا على املاء الدعاوى ، وتسجيل الحكومات ، واستخدموا للامراء فيما يعرض لهم من

العقود بأحكام كتابتها ، وتوثيق شروطها ، فصار لهم بذلك شغوف على أهل طبقتهم ، وتمويه على القضاة بجاههم ، يدرعون به مما يتوقعونه من عتبهم .. وفشا في ذلك الضرر في الأوقاف ، وطرق الغرر في العقود والأملاك . فعاملت الله في حسم ذلك بما آسفهم على واحقدهم .. » .

وكما خمدت ملكة الوصف عند ابن خلدون المؤرخ فقد ضمرت أحاسيسه الشخصية فبدا قاسيا الى حد كبير وحرمنا من استشفاف أية مشاعر انسانية في بعض المواقف التي كان المجال فيها متسعا لغمر من هذه المشاعر والأحاسيس ، كما في حديثه عن الطاعون الذي جرف آلاف الناس واودى بأبويه وبكثير من مشيخته عام ٧٤٩، فهو لا يزيد على أن يقول فيه « لم أزل منذ نشأت وناهزت مكبا على تحصيل العلم ، حريصا على اقتناء الفضائل ، متنقلا بين دروس العلم وحلقاته ، الى أن كان الطاعون الجارف ، وذهب بالاعيان ، والصدور ، وجميع المشيخة ، وهلك أبواي ، رحمهما الله » . ويفيض شعوره وهو يتحسر على أستاذه ابن عبد المهيمن الذي هلك في

هذا الطاعون أيضا ، فلا يقول أكثر من « ثم جاء الطاعون الجارف ، فطوى البساط بما فيه ، وهلك عبد المهيمن فيمن هلك ، ودفن بمقبرة سلفنا بتونس لخلة كانت بينه وبين والدى ، رحمه الله ، أيام قدومهم علينا » . وأكثر من هذا فان الانسان فيه يتعالى على مشاعره ، ويرقى الى درجة العالم وحد الجلافة وهو يذكر هلاك زوجه وبناته فى بحر الاسكندرية فى مركب غرق بهم ، وقد استقدمهم من تونس بشفاعة سلطان مصر فى شأنهم عند سلطان تونس فلا يزيد على تسجيل هذا الحادث المؤلم فى ثلاث مناسبات على أن يقول « .. فما هو الا أن وصلوا مرسى الاسكندرية ، فعصفت بهم الرياح وغرق المركب بمن فيه وما فيه ، وذهب الموجود والمولود ، فعظم الأسف واختلط الفكر » وفى المرة الثانية لا يزيد على قوله فى ذكر غرقهم « .. وعظم الأسف ، وحسن العزاء ، والله قادر على ما يشاء » . أما فى المرة الثالثة وكانت قد اصطلحت عليه الهموم ، وكثر عليه الشغب بمناصبته العداء من قبل أهل الدولة فى مصر حتى اضطر الى الخروج عن منصب القضاء ، فيقول « .. فكثر الشغب

على من كل جانب ، وأظلم الجو بينى وبين أهل الدولة، ووافق ذلك مصابى بالأهل والولد ، وصلوا من المغـرب فى السفين (كذا) فأصابهم قاصف من الريح فغـرقت وذهب الموجود والسكن والمولود ، فعظم المصاب والجزع ورجح الزهد ، واعتزمت على الخروج عن المنصب » •

واذا كان العالم المؤرخ فى ابن خلدون قد طغى على الانسان فيه وهو يؤرخ هذه الأحـــداث الأليمة ، فان الضعف الانسانى كثيرا ما يتغلب على ابن خلدون ، رجل الدولة ، وهو يلعب ألاعيبه السياسية الخطرة ، ولا غرو فى ذلك ، وفى بعض مواقفها ما يكفى « لتوسيطه » أو لدحرجة رقبته ، فتذله تشوفات الحيـــاة وتشوقاتها ، ويهيجه الشوق لأهله وأولاده ، فتتبدى لمسات انسانية حانية من العملاق المنهار • ومن أمثلة ذلك ما يخـاطب به شـعرا ابا عنان لاطلاق سراحه وقد سـجنه اذ ثبت تآمره عليه برغم ما ناله من احسانه ، يقول فى قصيدة عدتها نحو مائتى بيت :

على أى حال لليالى أعاتب
وأى صروف للزمان أغـالب

كفى حزنا انى على القرب نازح
وانى على دعوى شهودى غائب
وانى على حكم الحوادث نازل
تسالمنى طورا وطورا تحارب

ومنها فى التشوق :

سلوتهم الا ادكار معاهد
لها فى الليالى الغابرات غرائب
وان نسيم الريح منهم يشوقنى
اليهم وتصبينى البروق اللواغب

ونرى ابن خلدون المؤرخ يغرق فى غمر من شعور ابن خلدون الانسان وهو يهنىء السلطان عمر بن عبدالله (من سلاطين الموحدين سنة ٧٦٣) بالعيد ، ويرجوه السماح له بالانطلاق الى بلده فى افريقيا وكان قد وقع بينه وبين السلطان شىء من الجفوة والاعراض لشعور ابن خلدون بأنه قصر فى حقه عما يسمو اليه ، فأنشده فى قصيدة طويلة يتشفع فيها لديه بأهله وبناته ، معلنا زهده فى طلب العلا والمجد يأسا من جموح الأيام وحرانها ، ويتذلل له لغربته وضعفه تذلل المهيض الجناح ، الكسير الخاطر ، يقول :

« اجرني فليس الدهر لي بمسالم
اذا لم يكن لي في ذراك مقيـــــل
ووالله مارمت الترحـل عن قلى
ولا سخطة للعيش فهو جزيل »

« ولكن نأى بالشعب عني حبائب
شجاهن خطب للفراق طويل
يهيج بهن الوجــد أني نازح
وان فؤادي حيث هن حلول
عزيز عليهن الذي قد لقيته
وان اغترابي في البلاد يطول
توارت بانبائي البقـاع كأنني
تخطفت أو غالت ركابي غول
ذكرتك يامغنى الأحبة والهوى
فطـــارت بقلبي أنة وعويل
أأحبابنا والعهد بيني وبينـكم
كريم وما عهد الكريم يحـول
آلام مقامي حيث لم ترد العلى
مرادي ولم تعط القياد ذلول
أجاذب فضـل العمر يوما وليلة
وســاء صباح بينها وأصـيل
أما لليالي لا ترد خطوبهـا
ففي كبدي من وقعهن فلول

يروعنى من صرفها كل حادث
تكاد له صم الجبال تزول »

ولقد عرض ابن خلدون بعض قدراته الأدبية فى هذا الشعر وفى بعض القصائد والرسائل النثرية الأخرى التى أوردها فى كتابه بمناسبات مديح أو تشفع لدى بعض السلاطين أو وزرائهم مما يدل على تحليه بملكة أدبية عرضها فى هذا الكتاب الى جانب ما عرض من قدرته فى التأريخ خاصة .

منهجه وأسلوبه :

يتضح فى الكتاب أن المؤلف محكوم بسوق الأحداث وقصها لأنه يؤرخ حياته أو حياة الدول التى اتصل بها ، وبرغم ما يكمن فى هذا السرد من تدقيق وتحقيق فان مادته لا تجف بين يدى صانعها ، فهو يطعمها بكثير من الأخبار الأدبية ، فيذكر بعض الرسائل والاشعار والاخبار التى ترده برغم خروجها عن غرض الكتاب فى التعريف بالمؤلف ، لأن فيها — كما يرى — تحقيقا لبعض الواقعات المذكورة فى أماكنها من الكتاب.

ويلجأ ابن خلدون فى بعض الأحيان الى تلخيص الأحداث المهمة فى بداية كتابته مرحلة جديدة بعد أن يكون الاستطراد قد باعد بين الأحداث أو فصل بين حلقات تسلسلها . ونظرا لتقديره لقيمة الحضارة الانسانية وصلتها بالتاريخ نراه يلجأ أحيانا الى مقدمة تاريخية فى مطلع بعض أجزاء كتابه كما فعل عند حديثه عن فتنة الناصرى اذ يسوق الخبر عنها بعد تقديمه كلاما فى أحوال الدول ، فيطلعنا على أسرار فى تنقل أحوال الدول بالتدريج الى الضخامة والاستيلاء ثم الى الضعف والاضمحلال ، معتصرا نظريته المشهورة فى قيام الدولة واضمحلالها كما ترد فى مقدمته المعروفة . وكما فعل أيضا فى حديثه عن سفر السلطان الناصر فرج من مصر الى الشام لمدافعة التتر ، فقد ذكر كيف انساق الملك لهؤلاء التتر واستقرت الدولة الاسلامية فيهم لذاك العهد فاغرق فى سياحة تاريخية عاد خلالها الى بدء الخليقة واعتمار الله الأرض بأصناف البشر . والكتاب بأجمعه ، فيما عدا هذه الاستطرادات ، يختلط فيه التاريخ العام للدول التى تحدث عنها ابن خلدون وتاريخ حياته

الشخصية • ويمتزج التاريخان فى كثير من الأحداث ، ويتعانقان كلا واحدا فى حياة الدولة وحياة هذا الرجل، فقد كان رجل دولة ، وصانع حكومات •

أما بالنسبة لأسلوبه فى هذا الكتاب ، فلم يخرج الا نادرا عما هو معروف عن ابن خلدون من انه من كبار أئمة الأدب وأعلام البيان العربى ومن أبرز المجددين فى أسلوب الكتابة العربية • فقد تمرد على أسلوب الكتابة النثرية الذى كان سائدا فى عصره ، وكانت تكبله قيود السجع والمحسنات البديعية ، واحيا أسلوب العربية الأصيل فى عهودها الذهبية السابقة ، كما وصل على يد عبد الحميد الكاتب فى عصر الأمويين وعلى يد الجاحظ فى العصر العباسى ، هذا الأسلوب الذى يتميز بالسهولة والوضوح ، ودقة التعبير ، وقوة التدليل والترابط ، وحسن الأداء والتناسق ، اذ يعنى بتوضيح المعنى أكثر من عنايته بتزويق اللفظ • ويشير ابن خلدون نفسه الى هذا الأسلوب وتفرده فيه بين سائر كتاب عهده فيقول فى كتابته للرسائل « •• وكان أكثرها يصدر عنى بالكلام المرسل •• فانفردت به يومئذ ، وكان مستغربا عندهم بين

أهل الصناعة » . وقد طغى هذا الأسلوب على المؤلف في هذا الكتاب كما في سائر كتبه الا في مواطن قليلة جارى فيها مكرها الأسلوب المسجع الركيك في بعض قطع قصيرة من رسائله الى صديقه لسان الدين بن الخطيب مجاملة له في أسلوبه مع اعترافه بقصوره عنه في ذلك ، يقول فيه « وكان الوزير ابن الخطيب آية من آيات الله في النظم والنثر ، والمعارف والأدب ، ولا يساجل مداه ، ولا يهتدى فيها بمثل هداه » .

تقويم الكتاب :

ان هدف الكتاب كما هو واضح التعريف بمؤلفه وبرحلته غربا وشرقا ، وهو يقوم في معظمه على مزج بين التاريخ العام والترجمة الذاتية . وبذلك « تدخل هذه الترجمة من بعض نواحيها في الفن التاريخي الذى اشتهر باسم (الاعترافات) ، كاعتراف الغزالي في كتابه ــ المنقذ من الضلال ــ واعترافات جان جاك روسو في كتابه (الاعترافات) » ، ولذلك بدأ المؤلف في الكتاب مؤرخا أكثر منه رحالة جاب أنحاء (الغرب والشرق) ، اذ جاءت

رحلته متضمنة فى تاريخه ، ومسيرة فى سياق أحداثه التى عاشها فى داخلها عن قرب أحيانا ، وفى خارجها عن بعد أحيانا أخرى ، فأخذت عليه جل اهتمامه ، ومعظم عنايته . وبهذا نفسر قلة ما سجله من مشاهدات الرحالة فهو لم يكن يترحل طلبا للرحلة فى ذاتها وانما تحت قسر الأحداث فى الغالب . وكان يمكن حقا أن يفيض ابن خلدون فى وصف رحلاته وقد كان يروح ويجىء فى ظروف تبلغ من قسوتها فى بعض الأحيـــــان أن يكون مشردا عرضة للقتل ، وقد كانت له صلة وثيقة بالقبـائل فى المغرب العربى ولكنه لم يعرض فى شىء الى حياتها . ولربما اكتفى من ذلك بما عرضه فى كتبه الأخــرى وخاصة (الاعتبار) الذى يعد التاريخ فى كتابنا تلخيصا للتاريخ فيه . وهكذا فان شخصية المؤرخ حرمتنا كثيرا من ملاحظات الرحالة ، فلم يحدثنا شيئا عن حيــاة مصر فى زمانه الا فى أحوال القضاء فيها وفساد رجاله ، ولم يحدثنا شيئا عن أخبار حجه مرتين ، أو عن زيارته فلسطين أو دمشــق الا مقابلته لتيمورلنك ومن باب التــاريخ لا أكثر . وليت هذا العالم الكبير اتحفنا ببعض المشاهدات

والأحداث الأخرى ذات الدلالة على غرار ما أخبر به عن
مقابلته لتيمورلنك وهديته له ، وخبر بغلته التى طلبها منه
وأرسل له ثمنها الى مصر بعد عودته ، فرفع ابن خلدون
من شأنها وربطها فى ساحة التاريخ ، فأصبحت (بغلة ا
خلدون) من البغلات التاريخية الشهيرة فى عالم البغا
ومثل هذه الأحداث الصغيرة التى تكثر عند الرحالة
نادرة الى حد العدم عند ابن خلدون مما يعتصر شيئا من
خصائص الرحلة ومزاياها ، ومهما عظمت قيمة الكتاب
التاريخية فانها تتضاءل أمام كتابه (العبر) الذى يعد
الموسوعة لتاريخه الذى أورده فى (التعريف) • ومن
هنا فاننا نعود فنقول ان أهمية الكتاب اذن تتأتى عن
تعريفه المفصل الدقيق بنفسه وترجمته لذاته ترجمة العالم
الصدوق • ولقد بلغ فى هذه الترجمة حدا من الصراحة
يحمد له ويشكر عليه ، فبلغ به الصدق والصراحة الى
أن يذكر من صفاته ما يعد ذميما لدى الناس كتقلبه
المستمر على أولياء نعمته وأسياده • وهو تقلب يعكس
بلا شك شخصية ذات طموح لا يحد ، وجرأة بالغة كادت
تورد صاحبها موارد الموت مرات عديدة • وحياة ابن

خلدون كما أوردها فى (التعريف) تبرهن على عبقرية فذة ، فمثل هذه الشخصية التى جمعت بين رجل الدولة الجرىء والمؤرخ والفقيه وعالم الاجتماع لهى شخصية نادرة لا تتكرر كثيرا فى كل عصر ولا يقلل من جرأة هذا الرجل ما أشرت اليه سابقا من مواقف ضعف وهوان فهو انسان قبل كل شىء حرى به أن يخاف فى وقت لا تساوى فيه رقبة الرجل سل نصاب . ولكن يؤخذ عليه هذا التلون والتقلب اللذين لم يحاول انكارهما .

ومما يسجل له فى كتابه محاولته التحقيق فى بعض الأمور ، وليس ذلك غريبا على عالم مؤسس لعلم الاجتماع ، وصاحب نظرية فى نشوء الدول وأعمار الأجيال ، فقد حاول تحقيق نسبه وعدد أجداده العشرة السابقين عليه فى دخول الأندلس على أساس نظريته فى عمر الأجيال . ولكن مما يؤخذ عليه، وهو العالم العظيم، أخذه بما كان متداولا من أن الجنة هى منابع النيل ، فسماه نهر الجنة ومدفع مياه السماء دون تحقيق أو تدقيق الا اذا كانت عبارته أدبية محضة . ومن ذلك أيضا أخذه دون تحقيق بما كان متداولا عن أهل الجغرافيا عن توزيع

اعتبار الأرض وعن أن المعمور منها هو مقدار الربع فى وسط البقعة التى انكشفت من الماء فيه ، ومن قسمة هذا المعمور الى سبعة أجزاء يسمونها الاقاليم « مبتدأة من خط الاستواء بين المشرق والمغرب ، وهو الخط الذى تسامت الشمس فيه رؤوس السكان ، الى تمام السبعة أقاليم ، وهذا الخط فى جنوب المعمور وتنتهى السبعة الاقاليم فى شماله ، وليس فى جنوب خط الاستواء عمارة الى آخر الربع المنكشف لافراط الحرفية ، وهو يمنع من التكوين وكذلك ليس بعد الاقاليم السبعة فى جهة الشمال عمارة لافراط البرد فيها ، وهو مانع من التكوين أيضا .. »

ومهما يكن من أمر الكتاب فقد أبدع صاحبه فى مجال التعريف بنفسه ، وكان مجليا فى ذلك ، وأورد لنا نماذج شعرية ونثرية له ولغيره من الكتاب ، وعرفنا على مشيخته بكاملها ، وان قصر فى مجال الحديث عن رحلاته كرحالة .

٤ ـ رحلة رفاعة الطهطاوى الى باريس

هى رحلة سجلها رفاعة رافع الطهطاوى فى كتابه « تخليص الابريز فى تلخيص باريز » . وكان هذا الشيخ الأزهرى قد زار باريس وأقام بها مدة خمس سنوات كأحد أفراد أول بعثة علمية أرسلها محمد على حاكم مصر ضمن برنامجه الاصلاحى الذى كان قد تبناه بعد خروج جيش نابليون من مصر . والباعث الأول لرفاعة الطهطاوى على تقييد رحلته هو الرغبة فى التنبيه على ما يقع فى سفرته وعلى ما يراه ويصادفه من الأمور الغريبة والأشياء

العجيبة ، ليكون نافعا فى كشف القناع عن محيا (عرائس الاقطار) ، وليبقى دليلا يهتدى به الى السفر اليها طلاب الأسفار ، خصوصا وانه لم يظهر حتى ذلك الوقت شىء باللغة العربية فى تاريخ مدينة باريس ولا فى تعريف أحوالها وأحوال أهلها . وكانت هذه هى أيضا رغبة وتوصية بعض أقارب الشيخ ومحبيه ، ولا سيما شيخه حسن العطار الذى كان مولعا بسماع عجائب الأخبار والاطلاع على غرائب الآثار . أما الباعث الثانى له على تقييدها فهو رغبته فى « حث ديار الاسلام على البحث عن العلوم البرانية والفنون والصنايع » ، التى رأى من كمالها والانتفاع بها فى بلاد الأفرنج ما أبقاه طوال مدة اقامته فى حسرة على تمتعها بذلك دون ممالك الاسلام لخلوها من ذلك كله . ولهذا لم تقتصر رحلة الطهطاوى على ذكر السفر ووقائعه ، وانما اشتملت أيضا على ثمرته وغرضه ، وعلى ايجاز العلوم والصنايع المطلوبة ، وحتى فانه يمكن أن يقال بأن هذا الجزء الأخير قد غطى القسم الأكبر من كتاب الشيخ ، ان لم يكن أوفى الأجزاء أيضا .

ولقد كان الشيخ عند حسن ظن أقاربه ومحبيه فى

سرعة تقييد الرحلة ، اذ ما أن ودعهم فى القاهرة عصر يوم الجمعة ، ثامن يوم من شعبان سنة واحد وأربعين ومائتين بعد الألف، حتى راح وهو على ظهر النيل يعد نفسه لتدوين ملاحظاته التى بدأ يوليها اهتمامه منذ دخولهم الاسكندرية التى ظهرت له ، دون غيرها من بلاد مصر ، انها قريبة الميل فى وضـعها وحالها الى بلاد الأفرنج لكثرتهم بها ولسريان شىء من اللغة الطليانية بين أغلب السـوقة فيها . ولا يفوت الشـيخ أن يخلد فى كتابه الحثوات العظيمة من الماء المالح التى تجرعها من البحر قبل ركوبه لدفع ألمه ، كما علمه بعض من سافر من العلماء الى استانبول ، أو تلك السفينة الحربية الفرنسية التى أقلتهم الى مرسيليا طوال ثلاثة وثلاثين يوما عبر البحر . وهو خلال هذه الفترة لا يبخل علينا بوصف حياة الأفرنج على ظهر تلك السفينة ، فيحمد لهم محافظتهم على النظافة برغم انه (ليس عندهم مثقال ذرة من الايمان) . ويذكر مرورهم على جزيرتى كريت وصقلية وعلى مدينتى مسينة ونابولى ثم جزيرة (قرسقة) حتى وصولهم الى مرسيليا . وبعدها الى باريس عن طريق البر بالعربات . ومن الطريف

أن يعرض علينا نموذجا على قيود السفر فى ذلك الوقت ، فبعد خمسة عشر يوما من السفر يقول « رسينا على مدينة مسينا ، ولم نخرج من السفينة أبدا لانهم لا يمكنون من يجيء من البلاد الشرقية الى بلادهم أن يدخلها الا بعد الكرنتينة ، وهى مكث أيام معلومة لاذهاب رائحة الوباء ولكنهم يجيئون الانسان بسائر ما يحتاج ، ويناولهم الثمن فيضعونه فى ماعون فيه خل ونحوه مع التحفظ التام . وفى مرسيليا يتحدث رفاعة الطهطاوى عمن خرج مع الحملة الفرنسية من نصارى مصر والشام وبعض المسلمين (الذين تنصروا والعياذ بالله) .

ويبدو أن اهتمام الشيخ رفاعة كان منصبا أكثر ما يكون على مشاهداته وملاحظاته فى باريس أكثر من غيرها من المدن الفرنسية ، ولربما كان ذلك أمرا طبيعيا بحكم اقامته الطويلة فيها بالذات . فقد أولاها فعلا كل اهتمامه فعرض الى تسميتها وتخطيطها من جهة وضعها الجغرافى وطبيعة أرضها ومزاج اقليمها وقطرها ، وتحدث عن قناطرها على نهر السين الذى يخترقها ، وعن قنوات الماء والصهاريج فيها ، وعن مطاياها من العربات الكثيرة

التنوع والقرقعة التى لا تنقطع فى النهار أو فى الليل .
وهو يسهب كثيرا فى الحديث عن أهل باريس وطباعهم وعادة سكناهم ، ويصف بيوتهم ونظافتها وترتيبها ولطائفها ، وأغذيتهم وعاداتهم فى المآكل والمشرب .
ويدهش الأزهرى ، ابن الصعيد ، فى ذلك الوقت نظام المائدة الذى يراه لأول مرة فى باريس ، فلا يملك الا أن يصفه بأنه ترتيب عظيم جدا ، وفيه يقول « وعادة الفرنساوية الأكل فى طباق كالطباق العجمية أو الصينية لافى آنية النحاس أبدا . ويضعون على السفرة دائما قدام كل انسان شوكة وسكينا ، وملعقة ، والشوكة والملعقة من الفضة . ويرون أن من النظافة أو الشلبقة أن لا يمس الانسان الشيء بيده . وكل انسان له طبق قدامه بل وكل طعام له طبق وقدام الانسان قدح يصب فيها ما يشربه من قزازة عظيمة موضوعة على السفرة ، ثم يشرب فلا يتعدى أحد على قدح الآخر ، فأوانى الشرب دائما من البلور والزجاج وعلى السفرة عدة أوانى (كذا) صغيرة من الزجاج أحدها فيه ملح والآخر فيه فلفل وفى الثالث خردل الى آخره . وبالجملة فآداب سفرتهم وترتيبها

عظيم جدا • وابتداء المائدة عندهم الشوربة واختتامها الحلويات والفواكه •• » • ويعجب الشيخ بكثير من طباع الفرنسيين وخصالهم التى يختصون بها بين كثير من النصارى ، كذكاء العقل ودقته ، وغوص ذهنهم فى العويصـــات حتى ان عامتهم يعرفون القراءة والكتابة ويتعمقون مع غيرهم فى الأمور ، فهم ليسوا من قبيل الانعام كعوام أكثر البلاد المتبربرة • ويعجبه من خصالهم محبتهم الغرباء وميلهم الى معاشرتهم خصوصا اذا كان الغريب متجملا بالثياب النفيسة ، ويرى أن ما يحملهم على ذلك الرغبة والتشوف الى السؤال عن أحوال البلاد وعوائد أهلها ليظفروا بمقصدهم فى الحضر والسفر • ويذكر من طباعهم أيضا ما هو معروف عنهم حتى اليوم من التطلع والتولع بسائر الأشياء الجديدة وحب التغيير والتبديل فى سائر الأمور خصوصا فى أمر الملبس فانه لا قرار له أبدا عندهم ، ولم تقف لهم الى الآن عادة فى التزيى •

وهو يراهم أقرب للبخل من الكرم مع أنهم يصرفون الكثير من الأمـــوال فى حظوظ النفس والشـــهوات

الشيطانية واللهو واللعب ، وكذلك فهو يرى الرجال عندهم عبيدا للنساء مع عدم غيرة عليهن برغم قلة عفاف كثير من نسائهم . وأزهرية الشيخ ووقاره لم يمنعاه من التعرض للخوض فى الكلام على نساء الفرنسيين وجمالهن وأزيائهن وبعض عاداتهن ، فصور حياة النساء فى باريس فى قوله « ونساء الفرنساوية بارعات الجمال واللطافة حسان المسايرة والملاطفة ، يتبرجن دائما بالزينة ويختلطن مع الرجال فى المنتزهات وربما حدث التعارف بينهن وبين بعض الرجال فى تلك المحال سواء الأحرار وغيرهن خصوصا يوم الأحد الذى هو عيد النصارى ويوم بطالتهم وليلة الاثنين فى البارات والمراقص .. وكما قيل ان باريس جنة النساء .. وذلك ان النساء بها منعمات سواء بمالهن أو بجمالهن .. وملابس النساء ببلاد الفرنسيس لطيفة بها نوع من الخلاعة خصوصا اذا تزين بأغلى ما عليهن .. ومن عوائدهن أن يحتزمن بحزام رقيق فوق أثوابهن حتى يظهر الخصر نحيفا ويبرز الردف كثيفا .. ومن خصال النساء ان يشبكن بالحزام قضيبا من صفيح من البطن الى آخر الصدر حتى يكون قوامهن دائما

معتدلا لا اعوجاج به ، ولهن كثير من الحيل ومن خصالهن التى لا يمكن للانسان أن لا يستحسنها منهن عدم ارخائهن الشعور كعادة نساء العرب ، فان نساء الفرنسيس يجمعن الشعور فى وسط رؤوسهن ويضعن فيه دائما مشطا ونحوه .. ولا يمكن لهن أبدا كشف شيء من الرجلين بل هن دائما لابسات المجرابات الساترة للساقين خصوصا فى الخروج الى الطرق » ومما يثير انتباهه عادة الرجال هناك فى استعمال الشعور العارية لنحو الأقرع وردىء الشعر، وفى اللحى والشارب للتقليد، وهو يستغرب استعمال هذه العادة بين نساء القاهرة فى زمانه . والشيخ رفاعة يرى أن أهل باريس غير متدينين ، فلا شغل لهم فى أمور الطاعات بعد اشغالهم المعتادة المعاشية ، ولذا فانهم يقضون حياتهم فى الأمور الدنيوية واللهو واللعب ، ويتفننون فى ذلك تفننا عجيبا ، ويذكر متنزهاتهم العديدة كالتياترو ومحال الرقص المسماة البال والمواسم العامة والحدائق العظيمة وغير ذلك من المتنزهات . ومع انه رأى هواء باريس فى الجملة طيبا ومناسبا للصحة ، فقد أشار الى التقلب السريع فى طقسها بين الحر والبرد الشديدين حتى فى

اليوم الواحد . وقد لفت برد باريس انتباهه الى عناية الفرنسيين بمدافىء النار فى بيوتهم واعتبارها من زينة المحل ، فجره الحديث عنها الى تبيين أهمية النـار فى الشتاء جريا مع القول المعروف (النار فاكهة الشتاء) ، وفى ذلك يقول « ومن أعظم اكرام الضيف عندهم فى الشتاء تقريبه جهة النار ولا عجب فى ذلك .. ولله در القائل :

النار فاكهة الشتاء فمن يرد
اكل الفواكه شـاتيا فليصطل

« وبالجملة فالتدفئة فى الشتاء عند الفرنساوية جزء من المؤونة فهذا ما يستعينون به على البرد » . ولقد تأثر الشيخ رفاعة بما رأى من تقدم الحياة والحضارة فى باريس ، لا سيما عندما قارنها بحياة بلاده المتأخره آنذاك . فكان ذلك ، بالاضافة الى جو النهضة والحركة الاصلاحية اللتين بدأهما محمد على ، حافزا على تفتيح ذهن الشيخ على مظاهر هذه الحياة الجديدة التى انتقل اليها ، ومحاولته تلقيح الحياة المصرية بالكثير من مظاهرها التى رضى بها ورآها لا تتعارض ، بل وتتفق مع ما فى

كتاب الله العزيز ، ومن هنــا يمكننا القول بأن بذرة الاصلاح الحقيقية قد زرعت فى نفسه وبدأت تأخذ حظها من النمو الذى صادف مناخا طيبا طوال خمس سنوات عاشها فى بلد الحرية ، وكان اعجابه شديدا بكثير من مظاهر الحياة فيها ، فصمم على اطلاع مواطنيه على هذه المظاهر تنبيها لاذهانهم على آفاق الحياة الحقيقية المتقدمة، وحثا لهم على تطلبها والتطلع الى تحقيقها فى بلادهم . ومن هنا كان توفره ، وهو عضو البعثة فى الترجمة ، على ترجمة أجزاء من الدستور (الشرطة) الفرنسى ، ونبذة من قانون الصحة وتدبير البدن وبعض النواحى العلمية المختلفة ليعرف عليها أهل بلاده من خلال كتابه الذى ألفه . وانه لأمر على مقدار كبير من الأهمية أن ينشر رفاعة الطهطاوى فى مصر تلك الأيام شيئا من أنظمة تدبير الدولة الفرنسية توضح علاقة الملك بدواوين الدولة والوزراء ، وتبين « أن ملك فرنسا ليس مطلق التصرف وان السياسة الفرنساوية هى قانون مقيد بحيث ان الحاكم هو الملك بشرط أن يعمل بما هو مذكور فى القوانين التى يرضى بهــا أهل الديوان » ، وأن كتاب قانونهم

« وان كان غالب ما فيه ليس فى كتاب الله تعالى ولا فى سنة رسوله ولكن يبين كيف حكمت عقولهم بأن العدل والانصاف من أسباب تعمير الممالك وراحة العباد ، وكيف انقادت الحكام والرعايا لذلك حتى عمرت بلادهم » .

ووضع رفاعة الطهطاوى بعض مواد القانون الفرنسي التى تؤكد (حق الفرنساوية المنصوب لهم) ، أمام الشعب المصرى ، كالمادة التى تعلن المساواة التامة بين جميع المواطنين أمام الشريعة وأمام طلب الوظائف ، والمادة التى تضمن الاستقلال الذاتى والحرية الشخصية وحرية الدين والرأى مادام لا يمس القانون ، والمواد التى تحدد مكانة الملك ومسئوليات الوزراء ومكانة دواوين الدولة وتؤكد استقلال القضاء وحقوق الناس التى يضمنها الديوان . وفى الغالب ، فان الحديث عن ديوان رسل العمالات (مجلس النواب الآن) الذين هم وكلاء الرعية ، وشروط انتخابهم ومهماتهم كان شيئا جديدا على مصر بعد أن طال العهد على تجافى حكامها للشريعة الاسلامية . والطهطاوى لم يكن يترجم مثل هذه المواد الدستورية وحسب ، بل هو يشرحها ويعلق

عليها أحيانا كأنه يتعمد أن يبين مواضـــع قوة الشعب وحقوقه وواجبات الحكام ، ففى تعليقه على المادة الأولى التى تعلن أن سائر الفرنسيين متساوون قدام الشريعة يقول « معناه سائر من يوجد فى بلاد فرنسا من رفيع ووضيع لا يختلفون فى اجراء الأحكام المذكورة فى القانون حتى ان الدعوة الشرعية تقام على الملك وينفذ عليه الحكم كغيره . ومن هذا القبيل أيضا قوله « وقد ضمنت الشريعة لكل انسان التمتع بحريته الشخصية حتى لا يمكن القبض على انسان الا فى الصور المذكورة فى كتب الأحكام ، ومن قبض على انسان فى صورة غير منصوصة فى الأحكام يعاقب عقوبة شديدة .. » ولم يقتصر على نقل هذا المظهر من مظاهر الحياة الفرنسية ، وانما نراه يعجب باعتناء أهل باريس بالعلوم الطبية ، فيتحدث عن مكانتهم فى علوم الطب والحكمة ، ويشير الى كثرة المستشفيات والأطباء وتخصصاتهم والى بعض عادات التطبيب عندهم ، ويبدو من كلامه أن بيت الطبيب كان بمثابة العيادة المعروفة الآن ، كأن نظامها لم يكن معروفا يومئذ ، يقول « وللطبيب ساعات معينة يمكث

فيها قصدا فى بيته لتلقى الناس » ، وتدفعه غيرته على أهله وبلاده الى ترجمة نبذة من فن قانون الصحة وتدبير البدن ، لقصد استعمال جميع الناس بمصر لها لصغر حجمها ولعظم فائدتها ومنفعتها ، على شكل توجيهات صحية فى توقى الأمراض والعلل وكيفية معالجتها ، وفى معالجة الناقه وفى شكل وصـــايا عامة فى الصحة ، وتوجيهات فى كيفية بناء البيوت الصحية • وكما عرف الطهطاوى على هذه الجوانب الحياتية السائدة فى باريس، فقد تعرض طويلا لتقدم أهلها فى مختلف العلوم والفنون والصنايع ، وبين كيف انتشرت المعارف بينهم وبلغت أوجها ، وان كان فى علوم الحكمة حشـــوات ضلالية مخالفة لسائر الكتب السماوية ، ومن هنا فهو ينصح بأنه « يجب على من أراد الخوض فى لغة الفرنساوية المشتملة على شىء من الفلسفة أن يتمكن من الكتاب والســـنة حتى لا يغتر بذلك ، ولا يفتر عن اعتقـــاده والاضاع يقينه » • ويطيل فى ذكر مظاهر هذا التقدم العلمى ومراكزه ، فيذكر مجامع العلمـــاء فى باريس والكليات والجمعيات العلمية المختلفة والمدارس المتنوعة

وخزائن الكتب والمتاحف العلمية وبستان النباتات وحدائق الحيوان للتجارب الزراعية والحيوانية ، والمرصد السلطانى ودكاكين الكتبية وخاناتهم ، وكثرة المطابع والتأليف وان كان المقصود من أكثرها الكسب لا النفع، ولا ينسى أن يشير الى ما فى خزائن مكتباتهم من مخطوطات وكتب عربية . وهو يعد من معيناتهم على هذا التقدم سهولة لغتهم وسائر ما يكملها مما يسهل تعلمها ويعين على تفهم العلوم المكتوبة بها وتملكها . ويفرد بعض فصول كتابه للحديث عن اصطلاح اللغة الفرنسية وفن الكتابة وعلم البلاغة ويقارن ذلك بما هو معروف من اللغة العربية ويستعرض فى فصول أخرى بعض معارفه وترجماته فى علوم المنطق والحساب والجغرافية والتاريخ وغيرها . ولا ينسى الشيخ فى باريس أنه طالب علم فى البعثة التى أوفد فيها فيشير الى آمال — ولى النعم — فى سرعة تعلمهم ورجوعهم مما جعلهم يبدأون فى تعلم تهجى اللغة وهم فى مرسيليا قبل وصولهم الى باريس حيث يوضع لهم نظام خاص للدراسة اليومية يتوزع أوقاتهم بين اللغة والتاريخ

والحساب والهندســـه والجغرافيا • وفى باريس يقيم الأربعون مبعوثا فى بيت واحد لمدة سنة ثم يفرقون بعدها جماعات جماعات فى مكاتب متعددة ، ويعيشون فى بيوت مخصوصة لتسهيل اتصالهم بأولاد الفرنسيين اعانة لهم على سرعة اتقان اللغة ، وهو يورد بعض فرمانات ولى النعم التى يحثهم فيها على التحصيل ، وهى على نوعين ، فمنها ما كان من باب ما يسمى عند العثمانية احياء القلوب ، ومنها ما كان من باب التوبيخ • ويوقفنا الطهطاوى على أوجه اجتهاده وتفوقه وأعماله فى الترجمة أثناء هذه الفترة مما جعله يستحق بعض جوائز التفوق على شكل هدايا من الكتب ، وانه كانت له فى هذه الفترة صلة قوية مع بعض المستشرقين الفرنسيين مثل المسيو (كوسين دى برسوال) و (دى ساسى) و (جومار)• ويثبت بعض رســائلهم فى مدح أعماله وتشجيعه على بعض صفحات كتابه •

خصائص الرحلة وأسلوبها :

ان من أبرز ما يبدو من سمات رفاعة الطهطاوى فى هذه الرحلة حبه الكبير لوطنه مصر ورغبته العظيمة

فى نهضته ويبدو هذا الحب المقيم فى قلبه ، من خلل الموضوعات التى تعمد تعريف أهله بها ، ومن منهجه الذى اتبعه فى المقارنة بين كثير من مشاهداته فى أحوال باريس وبين أحوال القاهرة وحياة المصريين فى أيامه ، مما يجعل سمة المقارنة هذه من أميز خصائص رحلته ، فهو ما ان يتحدث عن نهر السين ومائه والنزهات عليه حتى يثير ذلك فى خاطره النيل ونزهاته ، وما ان يتحدث عن تربة فرنسا حتى يعقد مقارنة بينها وبين تربة مصر ، وهو يفضل وطنه على كل ما سواه ، فيقول « لو تعهدت مصر وتوفرت فيها أدوات العمران لكانت سلطان المدن ورئيسة بلاد الدنيا كما هو شائع على لســان الناس من قولهم (مصر أم الدنيا) » • وهذا المنهج فى المقارنة يطول ويتسع ليشمل حمامات باريس والقاهرة ونصارى باريس وقبط مصر ، وبيوت الفرنسيين بلطائفها مع بيوت المصريين ، وغنى الفرنسيين الفاحش حتى أن المتوسط منهم أغنى من تاجر عظيم من تجار القاهرة ، ويبلغ به الأمر درجة التحسر وهو يرى ساحات باريس ترش بالماء وقت الحر ، فيقول ان « مصرنا أولى بهذا لغلبة الحر » • ويصل الى

حد الجرأة عندما يقارن بين المصروفات الباهظة للمسئولين في مصر والتوفير المتبع في فرنسا ، وتدبير المصاريف .
« فمن ذلك عدم تعلقهم بالأشياء المقتضية للمصاريف » فالوزير عندهم ليس له أزيد من خمسة عشر خادما حيث أن العسكرى بمصر له عدة خدم . ومن أطرف مقارناته تلك المقارنة التى عقدها بين التياترو في باريس ولاعبيه من النساء والرجال وبين (العوالم) وأهل السماع في مصر ، وكذلك ما يذكره في الرقص في كل من فرنسا ومصر ، يقول « ويتعلق بالرقص في فرنسا كل الناس وكأنه نوع من العياقة والشلبنة لا من الفسق ، فلذلك كان دائما غير خارج عن قوانين الحياء بخلاف الرقص في أرض مصر فانه من خصوصيات النساء لانه لتهييج الشهوات ، وأمافى باريس فانه نط مخصوص لا يشم منه رائحة العهر أبدا ، وكل انسان يغرم بامرأة يرقص معها » . والخصيصة الثانية التى تتسم بها هذه الرحلة هى ــ الاستطراد ، وقد تعمد صاحبها ذلك تعمدا بقصد النفع ، فهو يقول « .. ووشحتها ببعض استطرادات نافعة ، واستظهارات ساطعة » ، ومن أمثلة ذلك ما يورده

من كيفية معرفة درجات الطول والعرض لمكان من الأمكنة وافاضته فى ذكر فروق الساعات بين مدن العالم ، وهو بصدد ذكر درجة العرض وخط الطول الذى تقع عليه باريس ، وهو يعرض ذلك « وان كان يخرجنا عما نحن بصـــدده » كما يقول . ومن أمثلته أيضا حديثه عن اللسان الفرنساوى ، وقد أورد فى ذلك نبذة طويلة ، عقد فيها مقارنة بين جمال المحسنات فى اللغة العربية واعتبارها ركيكة فى الفرنسـية وترجم بعض الأشعار الفرنسية الى اللغة العربية وأفاض فى تبيين آثر الترجمة على ما يترجم من لغة الى أخرى . ومثل ذلك ايراده خطبة المستشرق (دى ساسى) فى شرحه لمقامات الحريرى لمجرد ذكره له .

وخصيصة ثالثة لا بد من أخذها بعين الاعتبار فى كتاب رفاعة الطهطاوى ، أقصد كثرة ايراده الشعر سواء من نظمه أم من نظم سواه ، وهو يشير الى ذلك . وقد امتلأ كتابه بهذا الشعر بمناسبات مقبولة أو بمناسبات يفتعلها افتعالا . وهو ، حتى فى تلك المناسبات المقبولة يفيض فى الاستشهاد بالشعر كأن هدفه عرض معارفه

فى هذا المضمار . ومما تجدر الاشارة اليه أن استشهاده بالأحاديث وتضمينه للآيات القرآنية قليل الى حد كبير ، ولربما يعود ذلك الى أنه يتحدث عن مجتمع أجنبى ، لا مجال فيه لمحاجة على أساس الاسلام . ولا يعنى هذا انه كان بعيدا عن تأثير الدين ، بل على العكس فأن كثيرا من أحكامه وآرائه كانت محكومة بمفاهيم الدين لديه ، وبأثره عليه . اضرب مثلا على ذلك مفاضلته التى يقيمها بين أقسام الدنيا الخمسة ويجعل فيها مزية الاسلام وتعلقاته الفيصل والمعيار ، يقول « فحينئذ تكون آسيا أفضل الجميع ، ثم تليها أفريقيا لعمارها بالاسلام والأولياء الصالحين خصوصا باشتمالها على مصر والقاهرة ثم تليها بلاد أوربا لقوة الاسلام ووجود الامام الأعظم ، امام الحرمين الشريفين سلطان الاسلام فيها ثم بلاد الجزائر البحرية لعمارها بالاسلام أيضا مع عدم تبحرها فى العلوم كما هو الظاهر ، فادنى الأقسام بلاد أمريكية حيث لا وجود للاسلام بها أبدا .. وهذا كله بالنظر للاسلام والعلوم الشرعية والشرف الذاتى فان المراد بالشرف ما يعم الشرعى وغيره » . ومع ما يمكن أن يقال

فى هذه القسمة ، وليس هنا مجال لذلك ، فان الصبغة الدينية واضحة تمام الوضوح لديه مما يمكن أن نعتبره خصيصة رابعة من خصائصه فى هذه الرحلة .

أما من ناحية أسلوبه التعبيرى ، فانه يمكن أن يقال ان عبارته بسيطة لم يتكلف فيها التنميق ، ويطغى هذا الأسلوب على الجزء الأكبر من الكتاب ، وربما كان ذلك لكثرة ما فى جعبتــه من معلومات يــريد سردها والأخبار بها ، مما لم يتح له مجــالا للعناية البيانية ، ولا شك أن لصلته باللغة الفرنسية وترجمته عنها أثرا فى ذلك أيضا . وقد حاول فعلا أن يسلك فى كتابه « سلوك طريق الايجاز وارتكاب السهولة فى التعبير حتى يمكن لكل الناس الورود على حياضه » . ومع هذا فاننا نراه يتعمد السجع فى بعض أجزاء الرحلة كما فى استهلاله الكتاب وفى وصفه الأشخاص أحيانا الى درجة أن السجع يهبط بعبارته ويتدنى بفكرته ، بل ويخلق تناقضا بين أجزائها ، فتكاد تنســحب الى غير المقصود منها ، ومن ذلك ما يقوله فى أحد زملائه من أفراد البعثة « ان حضرة مصطفى مختار بك أفندى قد

بلغ درجة كبار الفرنساوية فى علم ادارة المهمات العسكرية وقد حاز مرتبة سامية من العلوم ، وتمكن من المنطوق منها والمفهوم ، ولا شك أنه ممتاز بالعلوم التدبيرية وجامع لمعارف الديار الأفرنجية ، وسع الله به دائرة المعارف بممالك مصر والشام ، وجعله مقبولا لدى ولى النعم الأكبر وسر عسكر نجله الضرغام ، وليس كل من اكتسب المعارف يصدر عنه عمل اللطائف ، قال الشاعر :

« وعادة السيف ان يزهو بجوهره
وليس يعمل الا فى يدى بطل »

وبالاضافة الى هذا فنحن نقع له على بعض ترجمات فى لغة ضعيفة ركيكة وحتى فانه ليمكن القول بأن هذا الضعف والركاكة يتسربان الى بعض عباراته مما يستغرب على الشيخ أن يكتب مثلها، كما فى ترجمته (القانون نامه) الذى صنع لهم لتدبير شأن دخولهم وخروجهم بعد انتقالهم الى البنسيونات . هذا ، وفى الوقت الذى نرى الشيخ يدخل بعض الألفاظ الأجنبية فى كتابته مثل تياترو وسبكتاكل ، ورسطر اطورات ، بمعنى — بيوت

الأكل — ، وكوليج ، وجرنال والبوليتيقه وايلجيا) فاننا لا نعدم له بعض الأخطاء اللغوية من مثل قوله « وصورة التلميذ رفاعة انه قرىء (كذا) فى المجلس دفتران (كذا) » . وكذلك الفصل الموسوم بالمقولات العشرة (كذا) المنسوبة الى أرسطو .

تقويم الرحلة

تستمد رحلة رفاعة الطهطاوى قيمتها من مصدرين رئيسين ، أولهما العصر الذى تمت وكتبت فيه ، وثانيهما صاحبها الذى عاشها ودونها . وبالنسبة لزمن الرحلة ، فمعروف انها تمت أيام محمد على والى مصر ، بعيد اخراج حملة نابليون الفرنسية من مصر فى أوائل القرن التاسع عشر ، ومهما قيل فى اعتبار هذه الحملة باعثا من بواعث النهضة العربية الحديثة فى مصر بخاصة ، فان هذا الانفتاح الذى تم بين فرنسا ومصر فى أعقابها كان مترتبا عليها وأحد نتائجها . وهذا الانفتاح الذى كانت بعثة الطهطاوى احدى ثمراته كان يعنى أكثر من مجرد تخطى أسوار الجهل التى تخنق البلاد والانتقال من مكان

الظل الكثيف الى تحت الشمس ، كان يعنى ورود منابع العلوم الأصيلة فى مواردها الأولى فى وقت كان حاكم البلاد يحاول اغتراف شيء من هذه المناهل أو حتى بعض قنواتها لمصلحته أو لمصلحة البلاد معه ، فبدأ حركة احياء وبعث نهضة أراد لهما لون تلك المنابع ، وطعم مناهلها . وقد وفرت هذه الظروف لرجل من الصعيد فرصة الاقامة الرسمية فى بلد تعد (عرائس الاقطار) .

وعندما نقول ان الطهطاوى هو صاحب هذه الرحلة، فانه يجب علينا أن نتنبه الى أمور عدة اجتمعت فى ابن الصعيد هذا ، فهو كما يبدو رجل ذكاء ونشاط ومثابرة، تميز بروح شرقية صميمة ، وطبيعة خيرة مخلصة عمقتهما دراسة الأزهر فى نفسه ، وجاء شيخه حسن العطار : بما عرف عنه من رحابة أفق وحب للعلم والتغيير ليشحذ همته المخلصة ، ويوجه ذكاءه الخصب ، ففتح ذهنه وقلبه على علوم الغرب ، وشوقه الى آفاقها الرحبة ، فراح بهذه الأخيرة ، وبهذه النفس وبهذا الاستعداد والتهيؤ يضم ما يتشربه من ثقافة الغرب الى نفس اسلامية شرقية واعية، مدفوعا بحب أهله ووطنه لينقل اليهم ثمار تقدم البشرية

على مر الزمان • ومن هنا عكف على محاولة افادة بلاده
من كل ما استحسنه من أمور هذه البلاد وعوائدها على
حسب ما تقتضيه الحال • ومن المعلوم انه لا يستحسن
الا مالم يخالف الشريعة المحمدية فأشار الى ما يعم فرنسا
من كمال العدل « فهو المعمول عليه فى أصول سياساتهم
فلا تطول عندهم ولاية ملك جبار أو وزير اشتهر بينهم
انه تعدى مرة وجار » • والطهطاوى عندما يتعرض لهذه
الموضوعات فى مثل هذا الوضوح والصراحة ، كما فعل
أيضا عندما تحدث عن ثورة ١٨٣٠ م فى فرنسا وطرد
الملك عن العرش ، انما يقدم نموذجا فذا على الجرأة
والتفانى فى الاصلاح • وهو لم ير شيئا مفيدا أثناء
رحلته الا وحاول أن يعرف أهله عليه ، حتى حب
الفرنسيين للعمل ، حاول أن يحارب به ما تستمرئه النفس
الشرقية عموما من خمول وتوان ، خصوصا اذا كانت من
خاصة الناس ، فيقول « أعلم ان من المركوز فى أذهان
هؤلاء الطوائف محبة المكسب والشغف به وصرف الهمة
اليه بالكلية ومدح الهمة والحركة وذم الكسل والتوانى
حتى ان كلمة التوبيخ المستعملة عندهم على ألسنتهم فى

الذم هى لفظة الكسل والتنبلة • وســواء فى محبة الاشغال العظيم والحقير ولو حصل من ذلك مشقة أو مخاطرة بالنفس » • واذا تذكرنا أن الطهطاوى كان شيخا من خريجى وأساتذة الأزهر أدركنا ما يلفت انتباهه من مظاهر الحياة الباريسية التى أراد أن يطعم بها الروح الشرقية مما لا يخالف نص الشريعة المحمدية • ومن هنا وعلى أساس هذا الفهم شملت رحلته السفر ووقائعه ، وغرضه وثمرته ، وايجازا للعلوم والصنائع المطلوبة • ولا شك أن لدراسة الطهطاوى الأزهرية ، ولاطلاعه على ترتيب المؤلفين القدماء لكتبهم أثرا فى توجيهه الى ترتيب كتابه هذا الترتيب الذى بدا عليه ، والذى لا يخفى حتى على المتأمل فى فهرسه ، وان مازج تنسيقه ما أشرت اليه من استطرادات ليست فى محلها • ونحن وان كنا نحمد له هذا التنسيق ، فاننا نحمد له أيضا وقوفه عند بعض الأمور دون أخذها مأخذ التصديق ، كما فعل فيما ورد على لسان عمرو بن العاص بأن فى الاسكندرية آلاف الحمامات والقصور والميادين والبقالين ، فقال فى ذلك (لعله من مبالغات المؤرخين) ، وفيما ورد عن القزوينى

فى كتابه (عجائب المخلوقات) حيث قال بأن النخيل لا ينبت الا فى بلاد الاسلام ، فقال بأنه وجد عند كشف أمريكا بها غير منقول كما هو الظاهر من بلادنا — . واذا كنا نحمد له ذلك ، فاننا نأخذ عليه ذكره حرق عمرو بن العاص لمكتبة الاسكندرية دون محاولة تحقيق هذا الخبر ، لا سيما ولبعض المؤرخين رأى فيه ، وكذلك ما أخذه عليه دى ساسى من أنه ربما حكم على سائر أهل فرنسا بما لا يحكم به الا على أهل باريس والمدن الكبيرة ، وان كان ذلك ، كما فسر له دى ساسى نفسه ، نتيجة متولدة ضرورة من حالته التى هو عليها ، حيث لم يطلع على غير باريس وبعض المدن الأخرى .

٥ ـ رحلة الشـدياق الى مالطة وبريطانيا وفرنسا

أتيحت الفرصة لأحمد فارس الشدياق أن يسافر الى جزيرة مالطة والى فرنسا وبريطانيا ، وقد أقام فى الأولى مدة أربعة عشر عاما ، وقضى أكثر من تسـع سنوات فى باريس ولندن ، فوضع فى رحلته الأولى «الواسطة فى معرفة أحوال مالطة» وفى سياحاته الثانية كتاب « كشف المخبـا عن فنون أوروبا » . وهو وان كان دون بعض أخبار رحلتيه هاتين فى كتابه « الساق

على الساق فيما هو الفارياق » الذى قصد به أصلا الترجمة لنفسه ، فاننا سوف نقصر دراستنا هنا على كتابيه المخصصين للرحلة فقط ، وقبل مباشرة الحديث فى هاتين الرحلتين نود أن نشير الى ولوع صاحبهما بالأسفار ودوافعه الى ذلك وما يراه من فوائد الرحلة • ويبدو أن الشدياق قد ورث بذرة هذا الولوع من الأمجاد اللبنانية العريقة فى هذا المضمار ، فيحدثنا عن فترة شبابه قائلا « هذا وقد كنت فى عنفوان شبابى وجدة جلبابى ، وأزهار سنى ، وأزدهار ذهنى ، لهجا بالسفر والاغتراب ، والترحل عن الوطن والصحاب ، الى بلد ينضر فيه غرسى ، وتطيب فيه نفسى ، واقتبس فيه من مصابيح العلم قبسا •• » ونستطيع أن نستشف رأيه فى الترحل والأسفار من خلال قوله « •• فان الاسفار طالما ذكرها الذاكرون ، وبالغ فى وصفها الواضفون، فمدحها من علت مروءته وسمت همته، وذمها من قصر عنها ، ولم يجن منها ، فمنهم من شبه صاحبها بدر ان لم ينقل لم يكن فى التيجان منضودا ، وبهلال ان لم يسر لم يصر بدرا مشهودا •• » • ويرى الشدياق

أن الرحلة والاسفار يكسبان صاحبهما خبرة وتجارب لا يتأتى له تحصيلهما وهو قعيد بيته أو بلده أو بمجرد سماعه لأحاديث الناس وأخبارهم التى كثيرا ما يلعب التشويه فيها حتى تضيع الحقائق ، ومن ذلك ما يذكره من تخويف الناس له من السفر الى بلاد الانكليز (التى لا تطلع عليها شمس ، ولا ينبت فى أرضها قمح أو بقول، ولا يوجد فيها من المأكل الا اللحم والقلقاس ، ومن تخويفهم له أيضا من أن يفقد رئته لفقدان الهواء أو امعاءه لعدم الأكل ..) ولكن سفره اليها أثبت له أن الشمس فيها شمس والهواء هواء ،والرجال رجال ، وان الحياة فيها كالحياة فى غيرها من البلاد مع الفوارق الطبيعية . ومن هنا كان ينصح القادر على السفر ليرى ويسمع ويخبر ما فى البلاد الأخرى من عادات وتقاليد وأطوار وأحوال ، كأنه يتمثل بقول أبى تمام حاثا على الرحلة :

وطول مقام المرء فى الحى مخلق
لديباجتيه ، فأغترب تتجدد
فانى رايت الشمس زيدت محبة
الى الناس ان ليست عليهم بسرمد

والشدياق لا ينشد فوائد الرحلة من علم وخبرة للرحالة وحسب ، وانما يريد أن تعود فوائدها الى قومه كذلك ، بنقل كل مفيد يعين على تقدمهم من تلك البلاد التى زارها ، وبمقابلة ما رآه بما فى بلده من نظائر وأشباه ، ولذا فهو يحث من يرحل عن وطنه على تأليف فى رحلته يشهره بين بنى قومه لينتفعوا به من دون أن يقصد التكسب . ويبدو أن هذا الهدف ، هدف افادة بنى قومه على ما اطلع عليه ، كان دافعه الى تأليف كتابيه فى رحلتيه ، ودليلنا على ذلك ما سنشير اليه من كتابته فى بعض الموضوعات ، ومن طريقته فى كتابتها ، ثم هو يشير الى ذلك صراحة اذ يقول ، فى بواعث كتابته ـ كشف المخبا .. ـ ، وكان قد حمله شعوره بالعجز عن شمول أحوال البلاد وتقدمهم عن الاضراب عن التأليف ، «الا أن رغبتى فى حب (١) (كذا) اخوانى على الاقتداء بتلك المفاخر هى التى سهلت على هذا وأطالت باعى القاصر » . ويحكمه هذا الهدف فينحو به فى

(١) الواسطة ـ ٤ : كلمة (حب) كما هى فى الأصل ؛ وربما كانت (حث) ، وهو الأصح .

كتابته مناحى فى خدمته ، فتراه يبرر تقديمه الفصل الخاص بالحديث عن سوء مناخ مالطة وهوائها وشتائها وصيفها وامكان فساد الأطعمة فيها ، كأنه ينصح بعدم الاقامة فيها ، بله السفر اليها اذ يقول « انما قدمت هذا الفصل من كلامى لأهميته ، فان العافية خير ما ملك الانسان ، وان أرضا لتأكل من نازلها لجديرة بأن لا يؤكل منها .. » وغير هذا كثير كنصحه للمسافرين ما خبره فى كيفية التهرب من رجال الجمارك وخداعهم وتضليلهم .

هذا، واذا كان الهدف من تأليفه كتابيه فى الرحلتين، ما ذكرناه أو شيئا منه ، فان دواعى الرحلتين كانت مختلفة أصلا ، فرحلة مالطة جاءت بدعوة الأميركان له فى عام ١٨٣٤ للتعليم فى مدارسهم فى الجزيرة ولتصحيح ما يصدر من مطبعتهم فيها من كتب عربية ، وكان يومئذ مقيما فى مصر ، ورحلته الثانية جاءت بدعوة من جمعية « ترجمة الاسفار المقدسة » الى انكلترا ليسهم فى ترجمة التوراة الى العربية تحت اشراف المستشرق (الدكتور لى)، وكانت هذه الدعوة سنة ١٨٤٨ م .

وخلال اقامته فى مالطة خبر الجزيرة والحياة فيها عن كثب ، فوصـــفها من الناحية التاريخية والجغرافية والمدنية وتكلم على عادات أهلها وأخلاقهم ولغاتهم وعلى حكم الانكليز فيها . ولكنه رأى هذا الشرح (ويقع فى ٦٦ صفحة) « لا يروى غليلا ، ولا يشفى عليلا ، لكونه مقصورا على وصف الجزيرة ، وهى من الصغر بحيث لا تمكن الواصف من أن يطيل فيها من القول مأثورة ، أو يضيف اليه فوائد تاريخية خطيرة » ، « فظل خاطره حائما على مورد التأليف ، وقلبه هائما بسفر طريف ، الى أن مكنته التقـادير المكنة بعد لبثـه على تلك (الصخرة الدرنة) نحو أربع عشرة سنة ، من السفر الى بلاد الانكليز المتمدنة ، فاغتنم هذه الفرصة عجلا ، وظن انه أدرك أملا ، وعول على أن يشفع تأليف الواسطة برحلة يعظم وقعها ويعم نفعها ، فصار يقيد ما عن له من الخواطر فى وصفهم .. » . وبلغ من حرصه على تأليف رحلته الى بلاد الانكليز انه كتبه من خلال الضجيج والزحام ومجتمع الضجة فى لندرة (لندن) ، وفى صعوبة هذا العمل يقول « .. وما أظن أحدا من سكانها يمكنه

أن يعمل فكره فى شىء الا فيما هو بين يديه من الشغل .
وفى هذا المورد الوخيم قدر الله لى أن أؤلف هذا الكتاب لا فى مروج ايطاليا النضيرة ، ولا فى رياض الشـــام الأنيقة ، فأخال ان بين كل كلمتين منه دخانا متصاعدا وظلاما متكاثفا » .

وفى كتابه (الواسطة) ، يبدو أن الشدياق حاول أن لا يترك شاردة ولا واردة فى مالطة دون أن يضمنها صفحاته القليلة ، فجاء الكتاب طافحا بأحوال الجزيرة وبعادات أهلها ومظاهر حياتهم ، فبحث فى تاريخها وحقق فى موقعها بين تبعيتها لأفريقيا أو لأوروبا وفى اشتقاق اســـمها ، وتحدث عن هوائها وجوها فى الشتاء وفى الصيف ، ومن ذلك يقول « .. واذا مشى الانســـان خطوات فى الصيف يعوم فى عرقه ، ثم لا يلبث أن تلفحه لفحة من الريح ، فينبغى أن يكون أحذر من غراب » .
وهو يدعوها (مخزن الرياح) ، ويقول فى شـــتائها ورياحه وفى تتابع فصلى الشـــتاء والصيف وهجومهما بغتة « .. اذ الرياح تأخذ بناصية السائر والمياه تهطل

من أنف كل سحاب ، والزكام ملازم للأنوف والسعال قابض على الحلقوم .. فآخر ذنب الشتاء معقود بناصية الصيف» . وقد تكلم كثيرا وبالتفصيل على عادات أهلها وتقاليدهم فى البيوت وفى الأسواق وفى الزواج والأعياد وفى غير ذلك ، ووصفهم بالشراهة فى المآدب والبخل بالدعوات ، وفى ذلك قال شعرا :

« لئام اذا مازرتهم فى بيوتهم
كرام اذا زاروك ما أمكن اللحس
ولو وسعت افواههم غير ما بها
لكان لكل بين انيابه فأس

ومرة أخرى يصف بخلهم فى بيوتهم فيقول :

« اذا زرت ارحبهم دارة
توهم غولا قد اغتالها
يغلق أبوابه ان نوى
فطورا ، ويحكم اقفالها »

وكما تحدث عن بخل أهل مالطة تحدث عن كثرة الشحاذين فيها والحافهم بالسؤال فاذا « أعطيت أحدهم

مرة فكأنما قد دون ذلك عليك فى الدستور فاينما يرك يلزمك .. » وفى كلامه على البيوت التى تؤجر فيها أشار الى مواصفاتها وما ينقصها فى العادة والى شروط التأجير ، وقارن بين بيوتها والبيوت فى مصر والشام ، وقال فى بيته فيها وقد كثرت فيه العناكب :

« غدا بيتى كثير الفرش لما
تهلهل فيه نسج العنكبوت
فلا عجب اذا ما قلت يوما
لكيد الناس انى ذوبيوت »

وهو لم يكتف بوصف أهلها الأصليين فقط ، وانما تكلم على الانكليز فيها وعلى حكومتهم ودخلها ومصروفاتها ، ونقد شرائعهم وجمودها ، وفضل نساءنا على نسائهم ، وأشار الى تكبرهم وشحهم ، وعدم اعجاب الا القليل من الأجانب بمالطة لأن « كل ما فيها ان هو الا نفاية ما عندهم » . وعلى الجملة فانه لم يترك شيئا دون أن يتكلم عليه وان أحوجه الى بعض الكتب والمراجع

والتحقيق ، ففى لغتها ، وهى اخلاط من العربية والايطالية يقول شعرا :

« تبالها ! لغـــة بغير قراءة
وكتابة ، عين بلا انســــان
تتبلبل الألباب فى تركيبهـا
ويكل عنها حد كل لســـان
أذنابهـا ورؤوســـها عربيـــة
فسدت ، واوسطها من الطليانى

ويقارن بين مائها وبين ماء النيل الذى يطيب شربه على التعب والظمأ ، أما ماؤها فهو غير سائغ ، « فما شربه ذو تعب أو ظمأ الا وأصابه سعال ، وكثيرا ما يحدث من شربة واحدة نفث الدم .. فلا ينبغى لأحد أن يشرب من ماء مالطة الا ترشفا » . وفى نهاية المطاف يخرج من هذه الجزيرة غير مودع لها ، ولا آسف على فراقها ، وناسيا حياة أربعة عشر عاما فيها ، اذ يقول فى مقدمة كتابه (كشف المخبا ..) » .. سافرنا من مالطة الى انكلترا ،

وبعد نحو ساعتين غابت عنا أرضها ولكن لم أقل كما قال الشريف الرضي :

وتلفتت عيني فمـــذ خفيت
عنى الطلول تلفت القلب

وكما درس في كتابه (الواسطة) أحوال مالطة بهذا التفصيل فقد درس الحياة في بلاد الانكليز وفرنسا وفي لندن وباريس بخاصة وقارن بين بعض نواحي الحياة في كل منهما من جهة ، وبينها وبين بعض نواحيها في مصر والشام من جهة أخرى • وأتاحت الفترة الطويلة التي عاشها الشدياق في لندن وباريس ، وقد نيفت على التسع سنوات ، زار لندن خلالها عشرين مرة ونال فيها الجنسية البريطانية ، أتاحت له فرصة الاطلاع والوقوف على دقائق الحياة الأسرية والعلاقات الاجتماعية في هــذا المجتمع الأجنبي خاصة وقد ساعده كونه مسـيحيا حتى ذلك الوقت على الاندماج في حياتهم • وتمكن بما تمتع به من ذكاء وقوة انتباه وملاحظة ان ينسخ صورة هذه الحياة نسخا يكاد يماثل تمام المماثلة حياة البلدين حتى

فى كثير من دقائق التفصيلات فيها . وفى الحقيقة ، لم يكن الشدياق مجرد مصــور لهذه الحياة وانما أضفى كثيرا من الحيوية والحركة على صوره هذه بما بثه فيها من نبض التحليل الفكه ، والمقارنة الواعية فى كثير من الأحيان . لقد تناول كل صغيرة وكبيرة فى حياة هذا المجتمع فتحدث عن معالم المدينة وأشهر مبانيها ودوائرها، وهو حينما يتحدث عن احداها يستقصى ذلك فى أدق التفصيلات ، فاذا ما تحدث عن مبنى البريد مثلا سجل نقلا عن بعض مراجعه عدد مســتخدميه ومصروفاته ، حتى وعدد ما ينقله من رسائل فى السنة . واذا ما تحدث عن المسرح هناك عرج على تاريخه وعاد الى أسواقنا القديمة فى عكاظ وتمنى لو أنها تطورت ونقل العرب عن اليونان ما يصل بها الى المسرح المعروف . وكذلك اذا تناول حديثه صناعة النسج فى منشستر راح يغوص وراء آلات الغزل وتاريخ اختراعها . ومثل ذلك حديثه عن الصحف فانه يجره الى تاريخ الصحافة وصناعة الورق والمطبعة وأهمية اختراع الطباعة ، ولا ينسى أن يتحدث عن ايراد المملكة وميزانيتها ووصف ضنك الفلاحين فى

قرى بريطانيا ، والفقر المذل فى لندرة (لندن) يومها حيث «تتيه الكلاب على كثير من بنى آدم ممن يتضورون جوعا ويهلكون من الوسخ والبرد والعرى ومن آكل اللحوم المنتنة فى أزقة لندرة القذرة « وحيث تسكن عشرات الأسر رجالا ونساء فى حجرات قليلة ، وحيث البطالة للآلاف من الناس . « والحاصل انه لا فقير أشقى من فقير لندرة كما انه لا غنى أترف من غنيها » . وهو لا ينسى أن يشير الى فروق أسعار الحاجيات فى لندرة أثنـــاء الأوقات المختلفة التي زارها فيها ، وكيف انها تضاعفت عما كانت عليه أيام زيارته الأولى . وتناول فى كتابه شرطة لندرة ومهمـــاتهم ، وقال انهم أنفع طائفة للمدينة وللناس ، وفضلهم على شرطة باريس ، وكذلك تحدث عن جمعياتها الخيرية ومدارسها حتى وعن لباس أولاد هذه المدارس . وأجبرته رداءة الطعام فى مطاعم لندرة على فضح ما يتصف به أصحابها من غش لكل ما يؤكل أو يشرب ، فالخبز يخلط بالبطاطس والشب والجبس . والنقانق (السجق) حشو الحوايا والمصارين باللحم المنتن . وفسر آكثارهم من الفلفل والأبازير فى

الطعام لاخفاء الغش فيه بحرق اللسان . وكذلك فان أكثر مقاهيهم « مجتمع الارذال ، فترى فيها واحدا راقدا وآخر سكران وآخر وسخا ، واذا طلبت فنجان قهوة خلطوا القهوة بالحليب والسكر فى محل لا تراه وقدموه لك هكذا ، فلا تدرى ما وضع فيه » ، وبروحه الفكهة أعلن نقمته بقوله « فلعمر الله ان كان هذا الغش نتيجة التمدن والرقى فى العلوم فالجهل خير ، فان أهل بلادنا والحمد لله على جهلهم ما يعرفون شيئا من هذه الفنون الكيماوية والاخلاط الغير المتنـــاهية التى توجب على الشارى أن يستصحب معه مرآة من المرايا المكبرة ليرى بها تلك الأجزاء أو المركبات فيما يؤكل أو يشرب فى وطنكم هذا السعيد .. فان الكلاب والسنانير تأبى أكل هذه الجباجب التى تحشونها بلحومهن .. » . وهكذا يمضى فى ذكر بعض عاداتهم الغريبة فى الطعام ، فهم يشربون الحليب مع الفلفل والملح ، والقهوة مع الفجل والرشاد (١)، ويستفون الدقيق مع السكر، ومن غرائبهم

---

(١) الرشاد : نوع من النباتات

المستقبحة أكلهم الدم مخلوطا بالشحم ، وأكلهم اللحم المنتن ، اذ لا يأكلون الأرنب والغزال الا خنقا وبعد خنقه بثلاثين يوما ، وكذلك الطيور والفراخ بعد خنقها بأيام .
ويذكر عاداتهم فى الدعوة الى المآدب البيتية ، ويبين انها ضرب من الأسر لتحكم بعض العادات التى تقيد الضيف فيها وتحد حريته حتى فى أصناف الطعام التى يأكلها . وفى تفكهة محببة يروى لنا دعوته الى شرب الشاى يوما ، يقول « وقد أدبنى أو أدب طربوشى أحد الوجوه فى كمبريج الى أن أشرب الشاى معه فقال هل لك فى أن تشرب الشاى معنا فى احدى الليالى ولكن بعد ثلاثة أسابيع ، قلت نعم ، حتى اذا سرت اليه لم أجد على المائدة غير الصنف المعتاد منه مع انى كنت أظن أن توقيت تلك المدة انما كانت لجلبه من بعض البلاد » .
ولربما كان فى هذا التوقيت نوع من الكلفة والمجاملة الشديدة التى تحكم المجتمع الانكليزى ، وقد أشار هو نفسه بحكم اتصاله بكثير من الأسر الانكليزية ومشاركتها الحياة الى ذلك حينما أشار الى ما يقوم حتى فى علاقة الأزواج من كلفة ومجاملة . وفى الحقيقة ، فقد لا يكون

الشدياق ترك شيئا من مظاهر الحياة الانجليزية فى أيامه
الا وسجله أو نسخه عن الطبيعة الى أوراق كتابه كما
كان ينسخ الكتب ويفليها أيام كان يعمل فى النسخ
ومراجعة المطبوعات ، حتى تربية الأطفال لدى الانكليز
لم ينس أن يشير الى غسلهم بالماء البارد أو الفاتر والى
عدم تقسيطهم خوف منعهم من الحركة ، ويقارن تربيتهم
فى الغرب مع تربية أمثالهم فى الشرق حيث يزرع خوف
الحكام ورجال الدين والعفاريت والأرواح الشريرة
والظلام والأشباح فى قلوبهم فيكون أثر ذلك فيهم
كلوافح الرياح العاصفة على الغرس ، ولا ينسى أن يشير
كذلك الى بعض اعتقادات القوم فى الطيرة والتفاؤل ،
فينقل انهم يتطيرون من لقاء المرأة الحولاء مالم تبادر
بالكلام فحينئذ تزول الطيرة ، ومن السفر فى يوم
الجمعة . وهم يتفاءلون برمى نعلين باليتين خلف من يخرج
من المنزل لمصلحة يرومها ، فان فى ذلك فألا بنجاحه
وتوفيقه ، وكذلك فيما لو قلب أحد وعاء الملح على
المائدة ، مع ان قلبه عند العرب كناية عن الغدر والخيانة
وحفظه كناية عن حفظ حقوق المودة والعشرة وقسمهم

بذلك لتعظيمه . ومن الطريف حقا ان يتنبه الشدياق فيتعمق ظاهرة خاصة تتعلق ببرد انكلترا والشعور تجاه النار فيها حيث توقد لمجرد الارتياح لرؤيتها وفى ذلك يقول « وفى الحقيقة فانه عند شدة البرد هنا لا يفكر الانسان الا فى الاصطلاء ولا تزال تسمع من كل من تلقاه لفظة البرد واذا تفوه بها فرك يديه وتأفف ليدل على صدق ما يقول ولا سيما النساء حتى انهم ربما قالوا ذلك فى يوم لا برد فيه فكان ألسنتهم مرنت على ذلك.. وفى الجملة فان النار اليفهم مدة ثمانية أشهر فى السنة وبهذا تعلم أنهم لا يرون وصف الجنة نعيما لأن الانسان اذا كان مقرورا لا يشتهى أن يسمع ذكر المياه والظلال والأشجار بل كانوا يقولون تلك الجنة نيرانها مضطرمة، ومواقدها محتدمة ، وحضـــبها معتد ، وحطبها منضد وفحمها مؤبد ، ومسعرها مخلد ، فهنيئا للمصطلين ، وطوبى للمستدفئين » . وهكذا فانه لهذه المكانة التى تحتلها النار بالنسبة اليهم كان لها آداب كما للمجالس آداب بين أصحابها ، فالنار فى البيت لا يحركها الا من كان من أهل البيت أو من طالت الفته بهم . وهوفى كلامه

على نار الانكليز يفوق الطهطاوى فى حديثه عن نار الفرنسيين • ومن متعلقات النار عند الانكليز ، مكانة الشاى لدى الأسرة الانكليزية ، فلا شيء « اقر لعين صاحبة العيلة من الانكليز من أن تشرب الشاى مع أولادها بقرب الموقد ولا سيما اذا كانت مغلاة الماء تغلى ويسمع لها نشيش والبخار صاعد من بلبلتها ، وهذا هو أوفر الهناء الذى يعبرون عنه بلفظة كمفورت » • وهكذا يطيل الشدياق فى تصوير الحياة الانكليزية وتنظيم الزيارات الأسرية ، مدليا بملاحظات قيمة توصل اليها من خلال اقامته الطويلة بين الانكليز وحياته مع أسرهم •

ويشير الى أن شرع الانكليز « أطول الشرائع أحكاما وأكثرها قيلا وقالا ، وأوسع من علم العربية قلبا واعلالا • وبالنسبة لمعارفه اللغوية العربية فانه لا يرى بأسا من ايراد مجادلاته اللغوية الطويلة مع (الدكتور لى) المشرف على طبع التوراة ويعمل معه فى ذلك • ومن ملاهى لندرة لا يفوته ان ينقل الينا « ان الرقص فى هذه الملاهى مخالف للرقص المعهود فى المراقص ، فانه هنا أكثر خفة وصنعة وموازنة ، فقد ترقص المرأة على

رؤوس أصابعها عدة دقائق وتمشى كذلك القهقرى وقد تتخلع وتتفكك تخلع الراقصات فى بلادنا تقريبا بحيث لا يبدين شيئا مخلا بالحياء الا انه كثيرا ما يرفعن سيقانهن فى وجوه الناس ، وحين يدرن دورا متتابعا يرى الرائى أفخاذهن المستترة تشف من الخز ، ومع ذلك فلا يعد هذا مخلا بالحياء » .

هذا بالنسبة لبلاد الانكليز ولندره عاصمتها ، أما بالنسبة لباريس ، وقد كان مجموع اقامته فيها ثلاثين شهرا يبدو أنه قضاها متقطعة فيها ولم يزر قراها وريفها بعكس حاله فى انكلترا ، فقد كان (الدكتور لى) مقيما فى قرية من القرى ، وطاف الشدياق لذلك فى بعض أنحاء الريف الانكليزى . وكان الشدياق قد مر بباريس فى طريقه الى لندن فى أول زيارة له ، ولكنه لا يفصل فى أحوالها الا بعد عودته اليها من لندن ، وذلك طبيعى لعدم اقامته فيها مدة طويلة . وبرغم ما سجله فى حياتها فانه لم يطل اطالته فى حياة لندن لاعتقاده كما يصرح بنفسه ان فى رحلة صديقه الطهطاوى اليها وفيما كتبه عنها وعن حياة أهلها ما يكفى لتعريف العرب بها . ومع

ذلك فهو لا يبخل علينا ، جريا على منهجه الذى اتبعه فى رحلته الى بلاد الانكليز ، فى وصف باريس وأحوال أهلها وان لم يسهب بنفس المقدار • ونستطيع أن نستشف انطباعه عنها لمعرفته السابقة بها من قوله « •• ثم تأهبت للسفر الى باريس واعددت خيشومى للغنة • وخلدى للفتنة ، ودريهماتى للمحنة » • ومع وعوده بعدم الاطالة وباخلاء هذه الرحلة فى الجملة من الاستطرادات ، فانه لا ينجو من ذلك الا قليلا فى الموضوعات التى عرض لها فيها • وعلى أية حال ، فهو يبدأ فى وصف باريس منذ وطئت قدماه أرضها ليلا وحيث لا يزال هواؤها فى رئتيه ، ووحلها على نعليه فيقول « •• فبلغنا باريس ليلا فدهشت لما رأيت ، فانى وجدت جميع الحوانيت مفتوحة فى الساعة التى لا يفتح فيها شىء فى لندرة غير حانات المزر (١) ، وحين مررنا بالبلغـــار رأينا من الأنوار فى الديار من فوق وفى محال القهوة من تحتها وفى فوانيس الطرق من بين الأشجار وفى فوانيس العواجل الواقفة

---

(١) المزر : نبيذ الشعير أو الحنطة •

عن اليمين والشمال ما خيل لى انى فى جنات النعيم ، فقلت فى نفسى بخ بخ ان هذه مدينة بهجة وأنوار تتفتح فيها أكمام المعانى فى رياض الأفكار ، وتتجلى بها عرائس القصائد فى اخدار الأشعار فلا جعلن دابى النظم فيها الليل والنهار .. » • ويبدأ بعد ذلك بلمحة فى تاريخ باريس مشيرا الى أيام كانت بلدة صغيرة مفتوحة على الطبيعة وتوحشها ، فكانت الذئاب تدخل أسواقها وتغتال من تغتال ، ثم يذكر فى جملة ما يذكر عجائب هذه المدينة وأماكنها المشـهورة من كنائس وقصور ومستشفيات وبنوك وحدائق • يقول فى حديقة القصر الامبراطورى « فاذا لم تقصد هذه الحديقة لتسرح ناظرك فى محاسنها فذلك دليـل على فسـاد مزاجك » دون أن يبين أثر محاسنها فى نفسه • ويتناول بعد ذلك أعياد الفرنسيين وأخلاقهم وعادات نسـائهم ، ويشـير الى تفوقهم فى الصناعات على الانكليز • ويجلب انتباهه عمل محترفات التنويم فى باريس ، ومقاومة القسيسين والأطباء لهن ، لمخالفة عملهن للدين والطب ومن ناحيته فانه يحتار فى أمرهن ، فمرة يصدق خصوصا وهو يرى صدقهن أحيانا ،

ومرة أخرى يستغرب ، كما سنشير الى ذلك عند الكلام على خصائص هذه الرحلة . ومن الموضوعات التى شدت انتباه الشدياق فأولاها اهتمامه ، نساء باريس ، فراح يحدث عن أزيائهن ونظافتهن وعنايتهن بتربية أولادهن عناية كبيرة ، وأشار الى بعض عاداتهن فى البيوت اذ قال « ولهن كذلك عناية بليغة بتنضيد أثاث البيت ، وبهن تليق جميع الأعمال . وفى الواقع فانهن أزكن وألقن من سائر نساء الأفرنج ، وما من امرأة فى باريس الا وتعرف شيئا من المداواة ، وطبعهن التبكير فى القيام وتنظيف مراقدهن بخلاف نساء لندرة ، فان الغالب عليهن الكسل والتوانى ، والاضحاء فى النوم » ، وكان قد أشار الى جمال نساء لندرة وحيرته فى جمالهن فقال « .. فاذا رأيت واحدة منهن جزمت بأنها أجمل من رأيت ، ثم ترى أخرى فتجزم بأنها أجمل من تلك وهلم جرا» . والشدياق مولع بالمفاضلة وبمقارنة النظائر والاضداد من كل ما رأى فى بلاده أو فى بلاد زارها ، مالطة أو باريس أو لندن أو غيرها . وفى محاولة منه للتعريف بنمط الحياة فى كل من باريس ولنـدن يقارن بينهما كما يأتى « ان أهل

الاستطاعة فى لندرة كالتجار وغيرهم يستأجرون بيوتا
ويستقلون بها وذلك لصغرها خلافا لديار باريس فلهذا
كان صاحب العيلة يؤثر التنعم فى بيته مع أهله على
الخروج • أما الغرباء الذين ينزلون فى الديار فيكون
لأحدهم حجرة أو حجرتان فيمكنهم أن ينالوا طعامهم
صبحا ومساء فى منزلهم وذلك بأن يشتروا هم ما يريدون
أكله ويأمروا الخادمة بطبخه ويعطوها شيئا زهيدا فى
مقابلة خدمتها وذلك أولى من أنهم يأكلون فى المطاعم
بل هو أنظف وأرخص وفى هذه الخطة تفضل لندرة
باريس فان الغرباء فى هذه لا ينزلون الا فى منازل كبيرة
مشاعة فيضطرون وقت الأكل الى الخروج الى أحد
المطاعم فان الأكل فى المنازل غال جدا وهناك مزية أخرى
وهى ان النزيل فى لندرة يستأجر الحجرة فى الأسبوع
وفى باريس يستأجرها مشاهرة وان كان مياومة لزم ان
يدفع الضعف ضعفين وأيضا فان صاحب الدار فى لندرة
يعطى النزيل مفتاح داره ليمكنه أن يدخل ويخرج ايان
شاء وفى باريس لا بد من قرع الباب بعد نصف الليل
ليفتح له البواب غير أن النزيل فى ديار لندرة لا يمكنه

ان يخلو بالنساء فى حجرته وفى باريس لا حرج فى
ذلك فان طلوع المرأة الى حجرة النزيل فيها أهون من
طلوع الخبز كما ان طلوع المرأة فى لندرة اليه أصعب
من طلوع الفرن بناره وهذا شذوذ عن الأصل المتقدم
ان قلنا بأنه من طيب العيش الا أنه أكثر المنازل هنا يقوم
بخدمتها نساء حسان يغنين النزيل عن الخروج ولأصحاب
هذه المنازل غالبا عادة ذميمة وهى انهم يستدلون على
مفاتيح عديدة متنوعة يفتحون بها صناديق السكان حتى
اذا علموا ان ليس فى صناديقهم ما يقوم بأجرة المسكن
أنذروهم الخروج . وهناك طريقة أخرى للسكنى فى
كلتا المدينتين هى ان من شاء أن يمكث طويلا يستأجر
حجرة أو حجرتين فى دار من غير أثاث ويؤثثها كما أحب
ولكن يلزمه فى لندرة أن يفتح الباب لقاصده وينور له
فى الدرج وفى باريس لا يلزمه ذلك هذا ولما كان أرباب
الحكومة فى لندرة لا يعنون بما فيه تحسين المدن وتنظيم
ديارها كانت ديار لندرة بالنسبة الى ديار باريس حقيرة
جدا اذ كل انســان يبنى داره كما تقتضيه حاله فمنها
ما كان مشتملا على طبقتين فقط ومنها على ثلاث طبقات

من دون مراعاة رونقها وهندمتها ومساواتها أو يقال ان الديار هنا لما كانت عرضة للحريق كان هم صاحب الملك مجرد الانتفاع بالبناء دون الزخرفة » • وعلى الجملة فهو يفضل الحياة فى باريس على الحياة فى لندرة لكثرة الحوادث فيها ، وفى مفاضلته بين الانكليز والفرنسيين عموما ينصب من نفسه حكما دقيق النظر ، فيستعير من حكم ناقد أدبى قديم عند العرب نمطا فى الحكم يقوم على التصنيف والموازنة على أساس المستوى ، على غرار ما قال الآمدى فى موازنته بين أبى تمام والبحترى ، فيقول « •• ان الجيد من الانكليز خير من الجيد من الفرنسيس والردىء من هؤلاء خير من الردىء من أولئك ، ومآل الكلام أن عامة الفرنسيس أفضل ، وان خاصة الانكليز أجل وأمثل » •

ويظهر أن الناحية الاجتماعية قد استغرقت اهتمام الشدياق ووقته ، أكثر من أى شىء آخر ، فكانت اشارته الى ناحية الحياة العلمية لدى الأوروبيين قليلة ، ومن ذلك قوله فى مفهوم العلم ومكانته عندهم « ان من برع عندهم وان كان وضيع النسب فلا يعدم أن يرى من

يرفعه من خموله ويستفيد بعلمه ، غير أن العلم عندهم لا يكون بمعرفة قواعد النحو والصرف أو بنظم قصائد، وانما هو مطالعة اللغتين اليونانية واللاتينية ومعرفة أدبهما ومعرفة التاريخ والفلسفة والهندسة والرياضيات ، فمن حصل ذلك فقد قبض على مفتاح الرزق ومن اخترع شيئا مفيدا فقد استغنى به وذلك اما أن يبيعه لأحد من الأغنياء بجعل وافر ، واما أن يستبد بصنعه ، فلذلك كان العلم فى أوربا دائما مورد الاستنباط والابتكار ، بل كثيرون منهم يحرزون به لقب الشرف •

خصائص الرحلة وأسلوبها :

من العرض السابق لرحلة الشدياق نلاحظ أن أول ما يتسم به أسلوبه ومنهجه فى سوق أخبار رحلته هو الاستطراد ، فما ان يذكر موضوعا من الموضوعات حتى تراه يندفع وراءه يشبعه بحثا وملاحقة حتى أعمق جذوره وأدق متعلقاته • وهذا بلا شك ، بعض نتائج ثقافة رحالتنا الرحبة ومعارفه الواسعة •• فقد كان طلعة كثير القراءات • وهو يملك دون ريب بعض المصادر التى

يلاحق فيها أصول موضوعه ، ويتثبت من تاريخه ويحرص دائما على امداد القارىء بأكبر قدر من المعارف . ويكفيه فى هذا المجال إشارة بسيطة حتى (يزل قلمه ولا يكتفى الا بورود منابع موضوعة ، فلا يذكر اكثار الانكليز من شرب الشاى مثلا حتى تراه ينحرف فى حديثه الى جلبه واثمانه ومقدار ما يصرف منه . وكذلك لا يزور مبنى التلغراف فى كمبرديج ويورد الحديث عن هذه الزيارة حتى يغرق فى الحديث عن تاريخ صناعة التلغراف ويعرض لسيرة حياة فرانكلين الأميريكى بهذه المناسبة . ومن هذا القبيل أيضا الفصل الخاص الذى عقده «فائدة فى عمر الحيوان» ، حول أعمار الحيوانات طولا وقصرا، بمناسبة حديثه عن حيوانات الانكليز . وشبيه بذلك حديثه عن المسرح الانكليزى وتاريخه عند اليونان وكذلك عن طريقة التنوير بالغاز وتاريخه ، وكيفيته ، ويقارن فى ذلك بين ما هو متبع فى لندن وما هو متبع فى باريس ، يقول « .. وكيفية تنوير الطرق فى لندرة هو أن يرتقى الرجل فى سلم الى الفانوس ، وفى باريس

يجعل الرجل النور فى عود طويل ثم يدنيه من فوهة الفانوس من دون أن يرتقى اليه • ولا يخفى ان ذلك أسهل وأسرع » •

وهو وان حكمه هذا الاتجاه الا أنه محكوم من الناحية الأخرى بخاصية واضحة فى منهجه وأسلوبه ، أعنى بذلك ، ميله الواضح الى التحقيق فى مدى صحة الأمور وصدقها • ويبلغ فى ذلك درجة كبيرة من التدقيق أعانه على الوصول اليها استقرازه مدة طويلة فى البلاد التى كتب عنها بالاضافة الى ما تمتع به من ملكة نقدية جعلت من العسير على عقله التسليم بكل شئ دون مناقشة أو جدال ، خاصة وهو جدلى من نوع رفيع • فما أن يقرأ لأحد المؤلفين الأوروبيين ان أهالى مالطة يربون دود الحرير ، « وقد علم بالتجربة انه يتحصل منه حرير أعلى من حرير ايطاليا » حتى يرد عليه « قلت ، وقد علم بالتجربة أيضا ان دود القز لا يعيش فى هذه الجزيرة ، والمؤلف انما كتب هذا عند الشروع فى تربية التوت » • ومثل هذا مايعلق به على قول عمرو بن العاص الى الخليفة عمر بن الخطاب من أن فى مدينة المغرب

أربعة آلاف حمام واثنى عشر ألف بقال .. وأربعمائة ملهى ، بقوله « ان هذا القدر كثير على أى مدينة كانت فان باريس وما أدراك ما باريس لا تحوى الا ثلاثين ملهى ، ويحمل ان المراد بالملهى هنا كل موضوع يكون للهو فيدخل فيه موضع الحكايات والمشى والاجتماع ونحو ذلك » . وهو كما نرى فى هذا الموقف أوسع دراية من صديقه الطهطاوى . وفى مثل هذا المقام يرد على أرسطو فى أحد كتبه التى ينسب اليه انه يقول فيها ان أهل البلاد الحارة يعمرون أكثر من أهل البلاد الباردة لأن الحرارة الطبيعية يتأتى حفظها فى الأولى أكثر من الثانية ولا يقبل قوله على علاته ، فيقول « ولا أرى قوله مطابقا للواقع الا أن يحمل قوله البلاد الباردة على معنى المفرطة فى البرودة والبلاد الحارة على معنى المعتدلة فى الحرارة » ومثل هذا التحقيق كثير لدى الشدياق ، ولسنا فى مقام استقصائه فى كتابيه . ويكفى ما ذكرناه دليلا على هذا الاتجاه . ويتعلق بهذه الخصيصة عنده ، ولربما تفرع عنها خصيصة أخرى هى عمق تحليله للأمور وبراعة تصويره وتمثيله ودقة وصفه لها ، فتراه يحلل

الكذب ويقسمه الى أنواع ، النيىء المائع ، والمطبوخ الناضج ، والمتبل الحريف المحرق ، ويتمثل لكل نوع منها بأمثلة عجيبة تدل على وعى بأحوال المجتمعات ، ومعرفة بأخلاق أهلها على اختلاف أجناسهم ونحلهم • فهو يتتبع الدقائق ويعرضها ، أمامك وحين يريد ، حية ويصورها نابضة تدل على قدرة استبطان قوية حتى لنفوس الآخرين ، فاستمع اليه يصف نزلاء أحد ملاجىء العجزة فى مالطة :

« •• والرابع للطاعنين فى السن العاجزين عن تحصيل معاشهم المادين لوداع الدنيا يدا ، والمغمضين عن وزرها ونعيمها عينا قد أصبحوا من هذه الحياة على شفا جرف هار يعتبر بهم اللبيب ويتعظ بهم المستهتر فى حب الدنيا الغرور اذ تراهم كالأغرار من الأولاد قد انحنت منهم القدود لما استوى عندهم داعى الأجل واظلمت منهم الأبصار بعد أن أضاء فيهم جسم المشيب وانحلت منهم القوى بعد أن غلت منهم الأفكار والنهى ، فثم يقضون ما بقى من ظمء ، حياتهم بكاء وصار » • ومن أبرز ما يلاحظ فى أسلوب الشدياق ومنهجه فى رحلتيه ولوعه

بالمقارنات بين الأمور فى البلدان المختلفة التى يعرفها ، فما ان يتعرض لاختفاء الشمس الكثير فى مالطة أثناء فصل الشتاء حتى يتذكر شتاء مصر بشمسه الدافئة المنعشة وصيفها حيث يطفو نيلها فيرطب الأرض وينظم به شمل الأحباب وعقود المسرات ، وكذلك نراه يقارن بين ماء مالطة غير السائغ وماء النيل الذى يطيب شربه على التعب والظمأ ، ومثل هذا مقارنته بين نساء مالطة ولندن وباريس والشرق وكذلك بين أراضى مالطة الزراعية وتسويرها وبين سهول فرنسا وانكلترا على كثرة ما فيها دون ناطور يحفظها أو حائط يسترها • وهو لا يكتفى أحيانا بمجرد المقارنة ، وانما يذهب وراءها الى تفسير الظواهر ، ففى مقارنته بين بيوت مالطة وجمالها الخارجى وبين البيوت فى مصر والشام وجمالها من الداخل • يفسر ذلك بأن الأهالى فى مصر والشام لا يتولون تجميل بيوتهم من الخارج تهربا من ظلم الحكام وضرائبهم الباهظة التى لم تكن تقوم على حساب دقيق بقدر ما تقوم على النظر السطحى للامور ، ولذا كان المالك لا يزين داره ولا يجملها من الخارج تضليلا وتهربا • ويجب أن

لا يغيب عن بالنا ونحن نتحدث عن خصائص الشدياق وأسلوبه ، روح الفكاهة والتهكم التى طبع بها أسلوبه ففاضت عليها مرحا طبيعيا لا تكلف فيه ولا تصنع وانما هو يفيض من نفسه كما يفيض الماء من نبعه سلسبيلا سائغا ، فجاءت رحلته مشبعة بروح صاحبها الفكهة العابثة حتى لا تدرى أحيانا أجاد هو أم هازل . وقد مر فى فكاهاته ما أشرت اليه من ذكره لالحاف الشحاذين فى مالطة فى السؤال حتى « اذا أعطيت احدهم مرة ، فكأنما قد دون ذلك عليك فى الدستور ، فأينما يرك يلزمك » . ويتحدث عن بيع السمك الذى يطول عهده فى الثلج فى احدى قرى انكلترا « بارلى » حيث أقام فترة ، فيقول فيه « فربما كان عمر السمكة بعد صيدها أطول منه قبلها » . ومن فكاهاته ما يذكره فى طريقة التعارف الذى تم بينه وبين أحدهم فى مدينة منشستر بانكلترا ، يقول « وفيها تعرفت بالفاضل الكريم عبد الله أفندى الأدلبى قنصل الدولة العلية ، ولم يكن لتعارفنا من سبب سوى حمرة رأسينا ، فانه أول ما رأى طربوشى أقبل الى مبتسما باشا ودعانى الى منزله من دون أن

أبرز كتاب وصاة على عادة القوم » . ولما كان الشدياق لغويا . لم يعف اللغة والنحو من فكاهاته الخفيفة وروحه المرحة . ومن ذلك قوله في استئجاره بيتا « استأجرت بيتا يشتمل على أربعة مساكن وفرشته على قدر ما اقتضى الحال على متمكن غير أمكن » . وقوله أيضا ، وقد دهش فى مبنى التلغراف فى كمبريج لسرعة ابلاغ الأخبار وتلقيها « فبقيت مدهوشا وأخذت أفكر تفكيرا مضطربا فى كيف أن هذا العلم الحرى بأن يدعى من العلوم الالهية لكونه غير متناه لم يكشف سره من قبل الآن حين كان النحويون يجيزون ستة عشر وجها فى الصفة المشبهة ويمنعون وجهين ويختلفون فى وجه وحين كان العمر يضاع فى التعليل والاعتراضات والتجويز والترجيح .. ان وصول الخبر من قاعدة مملكة اوستريا الى ليفربول فى أقل من ثانية انفع من تجويز عشرين وجها فى مسألة واحدة » .

هذا ، ويعتبر أحمد فارس الشدياق ، على غرار ابن خلدون الذى كان سابقا عليه بأربعة قرون ، مثلا على

نمط الكتاب الذين اعتمدوا الترسل فى كتاباتهم الى حد بعيد ، فقد كان علما من أعلام النهضة الأدبية الحديثة ، فكان كارها للتكلف اللفظى ، والصناعة البيانية ، اذ رأى فى محسناتها وزخارفها ضياعا للمعنى وقتلا لقوة الابتكار لدى الأديب . ومن هنا كان فى كتابيه الواسطة وكشف المخبا ـ واضح العبارة ، سهل الأداء ، لم يحاول تصنع السجع والمحسنات أو الحشو كما فعل فى كتابه (الساق) أحيانا ـ ، فكان فيهما أكثر ضبطا لعبارته ، وأكثر عناية بدقة دلالاتها وأدائها ، وذلك تمشيا مع اتجاهه الأصيل فى تطلب الوضوح والدقة ، وأمام الحشد الهائل من المعلومات التى فى جعبته ويود تعريف القراء بها دون أن يشغلهم عنها بصناعات لفظية تلهيه هو نفسه أيضا عن استكمال عرضها وتوضيحها كما يريد . ولذلك جاء أسلوبه واضحا مشرقا يتقمص أسلوب الحكاية والقص فى كثير من أجزائه ، على الرغم من جفاف الأرقام والاحصائيات التى أولع بها كثيرا .

قيمة الرحلة :

تعتبر رحلة الشدياق الى البلاد الأوروبية على غرار رحلة الطهطاوى ، تعريفا بهذه البلاد وبمنـاحى حياتها المختلفة ، فى وقت بدأت تتفتح فيه أبواب الغرب عـلى بلاد العرب وبخاصة على مصر فى أعقاب الاحتـلال النابليونى لها . وما دمنا عرفنا بواعث الشـدياق فى رحلتيه ، فاننا نعلم انه انماتبرع من نفسه بتعريف بنى قومه على ما شاهده وخبره من أحوال تلك البلاد وحياة أهلها ، وكان أكثر اهتمامه منصبا على الناحية الاجتماعية فى حياتهم متمنيا لبنى قومه أن يأخذوا عنهم كل حسن ومفيد فيها . وهو يذكر انه فى كل ما نقله من ذلك كان صادقا « لم يمل به هوى ولا غرض بغضا أو حبـا اذ ليس له حذل مع أحد منهم ولا ضلع ، ولا انحـراف ولا ميل ولا ضر ولا نفع ، وانما روى عنهم ما روى ، وحكى عنهم ماحكى بحسب ماظهر له أنه الصواب .. »(١) ولقد كان حريصا على دقته واحصاءاته حتى انه يشير فى

(١) الواسطة ـ ٥ مع تغيير الضمائر . الحذل : الميل .

طبعة الكتاب الثانية الى اضافته بعض الاحصاءات التى زادت بعد طبعته الأولى فى تونس . والكتابان يعتبران بحق ، معرضا لحياة الشعوب التى تحدث عنها ، فقد أفاد عمله السابق فى نسخ الكتب والتحرير الصحفى ومراقبة المطبوعات فى نسخ هذه الحياة بجل تفصيلاتها ، فى البيوت وفى الأسواق وفى الأماكن العامة ، وتأتى أهمية ما كتب الشدياق فى ذلك لانه كتبه عن خبرة ومعرفة بسبب اقامته الطويلة واندماجه فى حياة تلك الشعوب ، فهو يكتب عن معاناة ، وينقل مباشرة عن الحياة والا لما تأتى له هذا الفيض من المعلومات الغزيرة والدقيقة . فجاءت رحلته من هذه الناحية سجلا غنيا لكثير من مظاهر الحياة ، يفيد مؤرخى حياة هذه البيئات فى تلك الفترة . وبالاضافة الى هذا ، فان الشدياق يقدم بعض المعلومات التاريخية يلخصها أحيانا عن كتب التاريخ المعروفة ، كما فعل فى حروب فرنسا وفى تاريخ بعض الاختراعات والصناعات ، وان كان كل ما قدمه يتضاءل أمام ماسجله عن الحياة الاجتماعية خاصة باعتباره مصدرا أصيلا فيها ، ولوجود مصادر لتلك المواد التى لخصها

أكثر أصالة من ملخصاتها ، ومنها تلك التى لخص عنها نفسها • ولربما اعتبر الطهطاوى أكثر نجاحا من الشدياق فى اختيار ما أراد التعريف به عن حياة الفرنسيين ، وأكثر منهجية فى ترتيبه وضبطه • بالاضافة الى حسن اختياره وأهميته ، اذ أن كثيرا من احصائيات الشـــدياق ، لا ضرورة لها ولا فائدة منها ، حتى للفرد الانكليزى أو الفرنسى نفسه اذ ما فائدة أن يعرفنا بعدد مســتخدمى بريد لندن مثلا وميزانيته وعدد الرسائل التى ينقلها ! ! ولعل لطبيعة رحلة كل منهما ، والظروف الخاصة به أثرا فى التوجه الذى ارتآه الواحد منهما دون الآخـر •• فالطهطاوى ، مسلم ، عاش فى باريس طالبا ذا علاقات محدودة بحياتها ، ولذلك أخذ ما أخذه من هذه الظاهرة ودرسه وحلله من زاوية نظر المسلم ، فقلت لديه الجزئيات وزادت الأحـكام وكانت معظم مشاهداته خارجية من الشارع على عكس الشـــدياق ، الذى عاش فى تلك البيئات الأجنبية وهو ما يزال على نصرانيته ، اذ لم يكن قد أعلن اسلامه بعد ، وعاش كرجل حر مستقل الارادة والتصرف ، فتغلغل فى بواطن حياة هذه المجتمعات ، ومن

هنا كان الحشد الغامر من التفصيلات حتى فى الحياة البيئية ، فلم يقو على تعليلها ودراستها الدراسة المتعمقة فأضحى همه أن يجمعها ويخبر بها أهل بلاده وقارئيه ولذلك جاء سرده لها خاليا من الانفعال العاطفى والانطباع الذاتى فى أكثر الأحيان مما وسمها بشىء من الجفاف لولا فكاهة الرجل التى أشاعها من بعض الأركان . وهو لا يبدو فى رحلته فكها وحسب ، وانما هو أيضا قوى الانتباه ، دقيق الملاحظة ، ذو جلد وصبر عظيمين على التعرض لادق التفصيلات التى أحسن جمعها ، وأجاد عرضها فى شىء من الترابط والتنسيق أعانه عليهما هدوءه وتوفره زمنا طويلا على هذه الرحلة فملأ عنها كثيرا من المذكرات خلال ذلك .

***

هذه صورة مجملة فى أدب الرحلة عند العرب حتى القرن التاسع عشر ، وبعض النماذج البارزة فيه تخيرتها ممثلة لاتجاهات هذا النمط الأدبى المختلفة ، من موضوعية تقترب من حدود الروح العلمية لدى ابن جبير الى طراز الخرافة كما تجسده رحلة ابن بطوطة الى حد

كبير ، ثم الى مثـــال الترجمة الذاتية وتدوين السيرة الشخصية كما نحا به ابن خلدون مع ما وسم رحلته من طابعه كعالم مؤرخ . وأخيرا مثلت برحلتى الطهطـاوى والشدياق الى البلاد الأوروبية فى القرن التاسع عشر ، نموذجا للانفتاح على بلاد آجنبية والتعرف على حياتها ومظاهر التقدم فيها ، بهدف الافادة من ذلك التقـدم ونقل (عدواه) الى البلاد العربية . ولقد حرصت خلال ذلك كله ، وبقدر المستطاع ، على الاشارة الى أهميـة هذه الرحلات والى أساليب أصحابها فى كتابتها مواءمة لأساليب عصورهم أو مخالفة لها . أما ادب الرحلة عند العرب فى القرن العشرين فلسوف نتناول نماذج منـه فى دراسة مستقلة تحت عنوان « آمين الريحانى وأدبه فى الرحلة » .

الفهرس

تنويه: هذا الفهرس ليس من أصل الكتاب ؛ وإنما أعددته تسهيلاً للوصول الى المواضيع .

م. سرمد حاتم شكر السامرائي

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٧٦/٤١٨٤
ISBN ٩٧٧ - ٢٠١ - ١٣٩ - ٥

● هذا الكتاب

يتناول أدب الرحلة عند العرب منذ الفتح الاسلامى حتى القرن التاسع عشر ، فيتحدث عن نشأة هذا الفن الأدبى وأهميته وعن علاقته ببعض العلوم والفنون الأخرى ؛ كما يتعرض الى اسلوب كتابة ادب الرحلة وتطوره من خلال عرض نماذج من الرحلات البارزة التى تعكس كثيرا من جوانب الحياة كما عاشها الرحالون وراوها فى ايامهم .